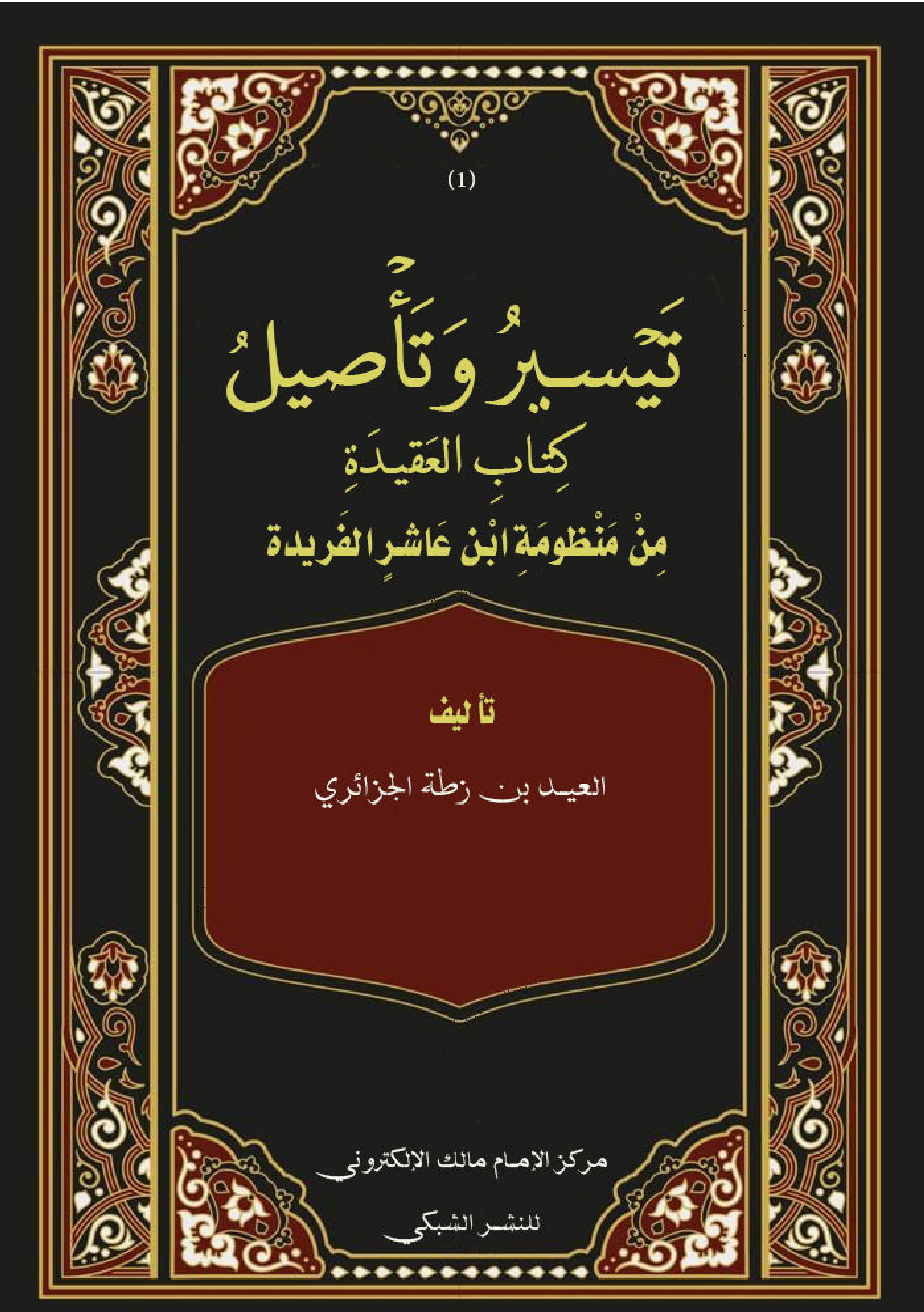

(1)
تَيسيرُ وتَأْصيلُ
كِتابِ العَقيدَةِ
مِنْ مَنْظومَةِ ابْنِ عَاشرٍ الفَريدة
تأليف
العيد بن زطة الجزائري
مركز الإمام مالك الإلكتروني
للنشر الشبكي

تيسير وتأصيــل كتاب العقيـدة

من منظومة ابن عاشر الفريدة

تأليف: العيد بن زطة الجزائري

مراجعة وتصحيح: بوبكر زوبير

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين.

وبعد: فهذا شرح ميسر مختصر مؤصل لكتاب العقيدة من منظومة ابن عاشر المسماة:

(المرشد المعين على الضروري من علوم الدين)

وأصل هذا الشرح دروس قدمتها لطلبة الزاوية الحملاوية بوادى سقان ولاية ميلة، أرتأيت أن أجمعها في كتاب ميسر، وأضعه بين يدي القراء الكرام، عسى اللهُ أن ينفعهم به.

وقد كتبته بلغة بسيطة وأسلوب ميسر، وجنبته التطويل والتفريع والتعقيد، ليكون في متناول عامة المسلمين، وعمدت فيه الى ربط مسائل العقيدة بأصولها الشرعية ودلائلها الكونية ورقائقها الروحية؛ ليحصل بها الإقناع للقراء الكرام، وتنشرح لها صدورهم، وتطمئن إليها قلوبهم، وتنجلي عنهم شبهات

المشككين في العقيدة الأشعرية بصفة عامة.. وفي منظومة هذا العالم الرباني بصفة خاصة، التي اشتملت على التوحيد الخالص، وتنزيه الخالق سبحانه وتعالى عما لا يليق بجلاله.

ولقد شهدت لهذه المنظومة بركة عظيمة، وحصل لي بها نفع عجيب في ما بيني وبن الله من أحوال، منذ أن شرعت في شرحها والاعتناء بها، وما ذلك إلا لما اشتملت عليه من الأسرار، العائدة إلى ربانية وإخلاص صاحبها رحمه الله وطيب ثراه.

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا الشرح البسيط خالصا لوجهه الكريم، وأن يغفر لي به أوزاري التي أثقلت كاهلي وأرّقت مضجعي، وأن يخلصني به من غوائل نفسي، وأن يكتب له القَبول وينفع به عموم المؤمنين، آمين يا رب العالمين.

المنكسرُ فؤادُه من فُرْط الجناية وقلة العمل والتقوى:

العيد بن توهامي بن زطة الجزائري

الخميس 2 محرم 1445هـ/20 جويلية 2023

التعريف بالناظم ومنظومته

أرتأتيت – قبل الشروع في المطلوب – أن أقدم له بمقدمة مختصرة، تشتمل على أربعة عناصر، وهي كالآتي:

أولا: التعريف بالناظم

عرف الناظم بنفسه في بداية منظومته فقال: **(يقول عبد الواحد بن عاشر)**.

وهذا ليس من باب التزكية لنفسه، أو طلب الشهرة والظهور، وإنما هو لما قرره العلماء من حرمة العمل والفتوى بالكتب التي يُجهل مؤلفوها، فلهذا عرف بنفسه؛ ليطمئن الدارسون لمنظومته، وليعرفوا ممن يأخون علومهم، وقد قيل: **(إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)**.

1- نسبه

هو عبد الواحد بن أحمدَ بن عليّ بن عاشر، الأنصاري نسبا، الأندلسي أصلا، الفاسي دارا ومنشأ، فنسبه يرقى إلى الأنصار رضي الله عنهم.

ومعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم قد تفرقوا في الأمصار، مجاهدين وفاتحين، وناشرين للعلم، وداعين إلى الله تعالى، فاستقر أجداده الأوائل من الأنصار بالأندلس، التي كانت من أعظم حواضر الدولة الإسلامية، في عهد الخلافة الأموية، ثم دارت عليها الدوائر واحتلها الأسبان، فانتقل أجداده إلى مدينة فاس بالمغرب الشقيق، وبها وُلد هذا العالم الرباني.

فهذا معنى قولهم: الأنصاري نسبا، الأندلسي أصلا، الفاسي دارا ومنشأ.

2 – ولادته

ولد رحمه الله سنة 990هـ بمدينة فاس.

3- شيوخه

تلقى رحمه الله علومه عن جماعة من العلماء الأجلاء، نذكر منهم:

* أبو العباس اللمطي، الذي كان إمام الرسم في عصره.

* أبو العباس المعروف بالكفيف، وعنه أخذ ابن عاشر علم القراءات القرآنية بالروايات السبع.

* أبو عبد الله القصار: الذي كان من أكبر علماء القراءات هو الاخر.

* أحمد الشريف التلمساني مفتي فاس وخطيبها.

4- تلامذته

أخذ عنه العلم جمع غفير من التلاميذ، نذكر منهم:

* محمد بن أحمد، المعروف بميارة المالكي، الذي كان من بره بشيخه أن شرح منظومته شرحا وافيا، سماه: **(الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين).**

* وعبد القادر الفاسي.

* ومحمد الزوين.

* والقاضي محمد بن سودة.

* والشيخ أحمد بن محمد الزموري الفاسي.

5- مؤلفاته

لابن عاشر مؤلفات عديدة منها:

* شرح متن خليل، من باب النكاح إلى باب السلم.

* تقاييد على العقيدة الكبرى للسنوسي.

* شرح مورد الظمآن في رسم القرءان.

* وأشهر مؤلفاته هذه المنظومة، التي نظمها أثناء ادائه لمناسك الحج، وقيل: أنه ابتدأها من قوله:

وَإِنْ تَرِدْ تَرْتِيبَ حَجِّكَ اسْمَعا   بَيَانَهُ وَالذِّهْنَ مِنْكَ اَسْتَجْمِعاَ

6- بعض مناقبه

قال العلماء أن ابن عاشر رحمه الله قد حاز كل الفنون، وكان عابدا زاهدا ورعا، وكان يأكل من عمل يده، وكان شديد التواضع، ومن تواضعه أنه كان يجلس في مجالس الذين هم

أدنى منه مرتبة وأقل مستوى؛ ليأخذ عنهم العلم، على الرغم من نبوغه وتبحره في شتى العلوم.

فقد كان رحمه الله عالما بالقراءات، والرسم والنحو، وعلم الكلام، والفقه وأصوله، والحساب والميراث، والطب والمنطق، والبيان والعروض... وقال المترجمون له: أنه قد فاق أشياخه في التعليل والتوجيه.

وبعد تحصيله للعلوم شرع في تعليمها وتدريسها، وكان حريصا على نشر العلم وإيصاله إلى عموم المسلمين، وقد قال في مقدمة منظومته: **(للأمي تفيد)**. وهذا يعني أنه قصد بها إفادة عموم المسلمين.

7- وفاته

توفي ابن عاشر بموت مفاجئ، وقيل: أنه مات مسموما، بسم وضع له في ورد الياسمين، وكانت وفاته يوم الخميس 1040هـ وهو في الخمسين من عمره، ودفن بمدينة فاس، رحمه الله وطيب ثراه.

ثانيا: التعريف بمنظومة ابن عاشر

منظومة ابن عاشر المسماة:

(المرشد المعين على الضروري من علوم الدين)

على الرغم من صغر حجمها إلا أنها كثيرة الفوائد، عظيمة المنافع، كتبها مؤلفها رحمه الله بأسلوب خال من التعقيد والغموض، وبألفاظ سهلة وعبارات سَلِسَة، يسهل فهمها واستيعابها، وقد نظمها رحمه الله على بحر الرجز، وهو من أيسر البحور، وتفعيلاته الأصلية:

مستفعلن / مستفعلن / مستفعلن

وعدد أبياتها 314 بيتا بعدد الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال رحمه الله في آخر منظومته:

أَبْيَاتُهُ أَرْبَعَةَ عْشَرَ تَصِلْ مَعَ ثَلاثَمائَةٍ عَدَّ الرَّسُلْ

وقد كتب الله لها قبولا لا نظير له، فانتشرت انتشارا واسعا، وأقبل عليها طلاب العلم حفظا ودراسة... حتى غدت من أول

ما يُحفظ بعد القرءان العظيم، وقد اعتنى بها العلماء عناية فائقة، ووضعوا عليها االعديد من الشروح، منها:

1- الدر الثمين والمورد المعين.

للشيخ محمد بن أحمد ميارة المالكي تـ1072هـ رحمه الله وطيب ثراه وهو من أول الشروح وأهمها وأجلها نفعا.

2- حاشية ابن حمدون على شرح ميارة.

وهي حاشية رائعة أضاف فيها الكثير من الفوائد، وأوضح بها العديد من الغوامض.

3- شرح الفوز المبين بالمرشد المعين.

للشيخ الحبيب بن عبد الرحمن التواتي، وهو شرح ثري ضمنه فوائد جمة لا سيما في مجال العقيدة.

4- شرح منظومة ابن عاشر في الفقه المالكي.

للشيخ أحمد مصطفى قاسم الطهطاوي.

5- الحبل المتين على نظم المرشد المعين.

للشيخ محمد بن عبد الله المعروف بابن المؤقت المراكشي.

6- مورد الشاعين في قراءة المرشد المعين.

للشيخ عبد الصمد التهامي كنون.

7- العرف الناشر في شرح وأدلة ابن عاشر.

للشيخ المختار بن العربي الجزائري الشنقيطي.

8- توضيح الدين على المرشد المعين.

للشيخ محمد الطيب بن أحمد الجزائري.

ثالثا: غاية منظومة ابن عاشر

قال الناظم رحمه الله:

وَبَعْدُ فَالْعَونُ مِنْ اللهِ الْمَجِيدْ فِي نَظْمِ أَبْيَاتٍ لِلأُمِّيِّ تُفِيدْ

فِي عَقْدِ الأشْعَرِي وفِقْهِ مَالِكْ وَفِي طَرِيقَةِ الْجُنَيْدِ السَّالِكْ

بين رحمه الله غايته من تأليف هذه المنظومة، وهي بيان العقيدة والفقه والتصوف.

ففي العقيدة اختار أحد مذهبي أهل السنة وهو مذهب أبي الحسن الأشعري الشافعي رضي الله عنه، ويقابله مذهب أبي منصور الماتُريدي الحنفي رضي الله عنه.

وفي الفقه اختار رابع المذاهب السنية وهو مذهب مالك رضي الله عنه.

وفي التصوف اختار طريقة أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه.

وبهذا يتجلى لنا أن هذه المنظومة قد اشتملت على بيان مقامات الدين الثلاثة المذكورة في حديث جبريل عليه السلام، وهي:

1- الإيمان 2- الإسلام 3 - الإحسان

فالعقيدة لبيان مسائل الإيمان. والفقه لبيان مسائل الإسلام. والتصوف لبيان مسائل الإحسان.

رابعا: التعريف بأبي الحسن الأشعري

قال الناظم:

فِي عَقْدِ الأَشْعَرِي وفِقْهِ مَالِكْ وَفِي طَرِيقَةِ الْجُنَيْدِ السَّالِكْ

فأما العقد في اللغة فهو الجزم، والمراد به: ما يعتقده المسلم اعتقادا جازما لا يخالطه شك أو تردد، في حق الله ورسله.. وغير ذلك من مسائل الاعتقاد.

وأما الأشعري فهو العالم الرباني أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن أبي بشر بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن بُرْدَة بن أبي موسى الأشعري.

فسمي بالأشعري؛ نسبة إلى جده أبي موسى الأشعري الصحابي الجليل رضي الله عنه.

ولد أبو الحسن الأشعري سنة 260هـ بالبصرة، وتوفي سنة 324هـ ببغداد، وكان شافعي المذهب على الصحيح، وقيل: بل كان مالكيا، وإليه ينسب الأشاعرة الذين يمثلون السواد الأعظم من أهل السنة والجماعة.

وكان في بادئ الأمر على مذهب المعتزلة في العقيدة، ثم تركه وعاد إلى مذهب أهل السنة، بعد رؤيا رأى فيها النبي صلى الله عليه وسلم، أمره فيها بنصرة مذهب أهل الحق.

الفصل الأول:

شرح

مقدمة الناظم

لكتاب الاعتقاد

تمهيد:

قال الناظم:

(مقدمة لكتاب الاعتقاد معينة لقارئها على المراد)

المقدمة نوعان:

1- مقدمة كتاب: وهي عبارة عن طائفة من الكلام تُقدم أمام الموضوع المراد، تمهيدا للدخول فيه، ومن هذا القبيل مقدمة الناظم، التي ذكر فيها الحكم العقلي وأقسامه...

2- مقدمة علم: وهي التي تُذكر فيها المبادئ العشرة، التي يتوقف عليها فهم ذلك العلم، والمجموعة في قولهم:

إنَّ مَبادِي كُلِّ فَنٍّ عَشَرَهْ ... الحَدُّ وَالموضُوعُ ثُمَّ الثَّمَرَه

وَنِسْبَةٌ وَفَضْلُهُ وَالوَاضِعْ ... وَالإِسْمُ الاِسْتِمْدَادُ حُكْمُ الشَّارِعْ

مَسَائِلٌ والبَعْضُ بِالبَعْضِ اكْتَفَى ... وَمَنْ دَرَى الجَمِيعَ حَازَ الشَّرَفَا

وسنقدم لعلم العقيدة بهذه المقدمة:

1- حدُّه - أي تعريفه -: هو علم يُتوصل به إلى إثبات العقيدة الإسلامية، بالبراهين العقلية والنقلية.

2- موضوعه: ذات الله من حيث ما يجب له وما يستحيل في حقه وما يجوز، وذات الرسل من حيث ما يجب لهم وما يستحيل في حقهم وما يجوز، والممكنات من حيث التوصل بها إلى وجود صانعها.

3- ثمرته: معرفة الله بالبراهين القطعية والفوز بالسعادة الأبدية.

4- نسبته: هو أصل العلوم الشرعية، وما سواه من العلوم فمتفرع عنه.

5- فضله: أنه أشرف العلوم وأجلها؛ لتعلقه بذات الله تعالى، وذات رسله الكرام.

6- واضعه: الله تعالى كعلم التجويد، أما نسبته للأشعري في قول الناظم: **(فِي عَقْدِ الأَشْعَرِي)**؛

فلأنه هو من أرسى قواعده، وخلصه مما علق به من شبهات المعتزلة وغيرهم، وحاججهم بالأدلة الشرعية والعقلية ودحض أباطيلهم.

7- **اسمه:** يسمى بعلم التوحيد، وعلم أصول الدين، وبعضهم يطلق عليه اسم علم الكلام، والحق أن علم الكلام إنما أُنشئ لحماية العقيدة من الشبهات، وليس هو ذات العقيدة أو ذات التوحيد.

8- **استمداده:** من الأدلة النقلية والعقلية.

9- **حكمه:** فرض عين على كل مكلف إجماعا.

10- **مسائله:** قضاياه الباحثة عن الواجبات والمستحيلات والجائزات.

المبحث الأول: التعريف بالحكم العقلي

قال الناظم:

وَحكْمُنا العَقْلِى قَضِيَّةٌ بِلاَ * وَقْفٍ عَلَى عَادَةٍ أَوْ وضْعٍ جَلاَ

قوله : **(وَحكْمُنا..)** يعني وحكمنا نحن أهل السنة والجماعة.. ولكي يتضح لنا المراد بالحكم العقلي، نعرف أولا بالحكم عموما، ثم نذكر أقسامه، ثم نخلص إلى بيان الحكم العقلي وأقسامه، فنقول وبالله التوفيق:

الحكم هو: **(إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه)**.

فمثال الإثبات: العوالم حادثة. **ومثال النفي:** الله ليس بحادث.

ففي المثال الأول أثبتنا الحدوث للعوالم، أي كونها مخلوقة بعد العدم، وفي المثال الثاني نفينا الحدوث عن الله الأول بلا بداية.

وينقسم الحكم عموما إلى ثلاثة أقسام، وهي: الحكم الشرعي، والحكم العادي، والحكم العقلي.

1- الحكم الشرعي: هو ما لا يُعلم ثبوته أو نفيه إلا عن طريق الشرع.

فمثال الإثبات: صوم رمضان واجب. **ومثال النفي:** صوم عاشوراء ليس واجبا.

ففي المثال الأول أثبتنا الوجوب لصوم رمضان، وفي المثال الثاني نفينا الوجوب عن صوم عاشوراء، وكلٌّ من النفي والإثبات لا يدركان إلا عن طريق الشرع، فلذلك سمي هذا الحكم حكما شرعيا نسبة إلى الشرع الحنيف.

2- الحكم العادي: هو ما لا يدرك بالشرع ولا بالعقل، وإنما يدرك بالعادة والتجربة والاختبار.

ومثاله في الإثبات: النار محرقة، الشتاء بارد، السكر حلو.. وما أشبه ذلك.

ومثاله في النفي: النار ليست باردة، الشتاء ليس حارا، السكر ليس مرا.. وما أشبه ذلك.

3- **الحكم العقلي:** هو ما يدرك بالعقل، بلا حاجة إلى تجربة أو اختبار، ودون توقف على وضع من الشرع.

ومثاله في الإثبات: الوالد أكبر من الولد، العشرة أكبر من التسعة، الهاتف لا بد له من صانع. **ومثاله في النفي:** الولد ليس أكبر من الوالد، التسعة ليست أكبر من العشرة، الهاتف لا يوجد دون صانع.

ومن هنا نفهم قول الناظم رحمه الله:

وَحكْمُنا العَقْلِى قَضِيَّةٌ بِلاَ * وَقْفٍ عَلَى عَادَةٍ أَوْ وضْعٍ جَلاَ

أي الحكم العقلي عندنا نحن اهل السنة هو: قضية تُعرف وتُدرك بمجرد العقل، فلا تتوقف في معرفتها وإدراكها على عادة وتجربة، ولا على وضع جلا أي ظهر من الشرع. فكون العشرة أكبر من التسعة هو حكم معروف ومدرك بمجرد العقل، دون احتياج إلى عادة وتجريب، ولا إلى وضع من الشرع يخبرنا بهذا الحكم.

المبحث الثاني: أقسام الحكم العقلي

قال الناظم:

أَقْسامُ مُقْتَضاهُ بِالْحَصْرِ تُمازْ وهِيَ الْوجُوبُ الاستِحالَةُ الْجَوازْ

فَوَاجِبٌ لاَ يَقْبَلُ النَّفْيَ بِحالْ   ومَا أبَى الثّبُوتَ عَقْلاً الْمُحَالْ

وجَائِزاً مَا قَبْلَ الأَمْرَيْنِ سِمْ   لِلضَّروريْ والنَّظَرِي كُلَّ قُسِمْ

يعني أن أقسام الحكم العقلي تُماز أي تتميز وتنحصر في ثلاثة أقسام لا رابع لها، وهي: **الوجوب والاستحالة والجواز**، وعلى هذه الأقسام يتوقف فهم مسائل الاعتقاد، وقد قيل: **(من لا يعرف هذه الأقسام فليس من العقلاء)**.

وفي ما يلي بيان كل قسم:

1- الواجب العقلي: ويسمى واجبا ذاتيا[1]، وهو ما لا يقبل النفي أبدا، وإنما يقبل الثبوت فقط، وسمي واجبا لأن العقل لا يتصور انتفاءه وعدمه، **كوجود الخالق جل وعلا؛** لأن العقل لا يتصور سيارة أو ساعة أو طائرة دون صانع خبير بصناعة هذه الأشياء، ولديه من القدرة والعلم ما يمكنه من صناعتها، ومن ثم لا يتصور العقل أن يكون هذا الكون العظيم قد وُجد دون صانع، وإذن: فوجود الخالق جل وعلا واجب وجوبا عقليا، لا يقبل النفي بحال، إذا لا يتصور العقل عدمه أبدا، فهذا معنى قول الناظم: **(فَوَاجِبٌ لاَ يَقْبَلُ النَّفْيَ بِحالْ).**

---

1 الواجب العقلي أو الذاتي هو خلاف الواجب العرضي؟ فالواجب العرضي هو الممكن أو الجائز العقلي الذي تعلق علم الله بوجوده واتجهت إليه إرادته، كثواب المطيع على طاعته، وعقاب العاصي على معصيته، فهو واجب عرضي اكتسب وجوبه من أمر خارجي منفصل عنه، وهو إخبار الله تعالى بوقوعه، ولكنه يقبل العدم في حد ذاته، فقد لا يثاب المطيع على طاعته، فإن شاء الله أثابه وإن شاء لم يثبه، ولا يجب عقلا على الله أن يثيبه، بل يثيبه تفضلا منه ومِنَّة. بخلاف الواجب العقلي أو الذاتي فوجوبه ناشئ من ذاتيته، ولذلك فهو لا يقبل النفي أبدا.

2- **المستحيل العقلي:** وهو ما لا يقبل الثبوت أبدا، وإنما يقبل النفي فقط ، فهو عكس الواجب العقلي، وسمي محالا أو مستحيلا لأن العقل لا يتصور وجوده ابدا، كوجود صنعة بلا صانع، وهو معنى قول الناظم: **(ومَا أَبَى الثّبُوتَ عَقْلاً الْمُحَالْ)**. وتقدير البيت: المحالُ ما أبى الثبوت عقلا.

3- **الجائز العقلي**[1] : ويُسمى ممكنا، وهو ما يقبل الأمرين معا، أي يقبل الثبوت والانتفاء عقلا، كإيجاد المخلوقات أو عدم إيجادها، فيجوز في حق مولانا أن يوجدها، ويجوز في حقه أن يتركها في العدم، ولا يجب عليه شيء من ذلك ولا يستحيل، وهذا معنى قول الناظم: **(وجَائِزاً مَا قَبْلَ الأَمْرَيْنِ سِمْ)** وتقدير البيت: وسمْ أي عَلّمِ الجائزَ بأنه ما قبل الأمرين معا، أي النفي والإثبات.

---

1 الجائز العقلي هو الممكن الذي يتصور العقل وجوده وانتفاءه على حد سواء كاتصاف الأجسام بالحركة والسكون. وهو بخلاف الجائز الشرعي: وهو المباح الذي أذن الشارع في فعله وتركه، كالبيع والشراء.

ثم بين الناظم أن كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة المتقدمة، ينقسم إلى ضروري ونظري، فقال: **(لِلضَّرورِيْ والنَّظَرِي كُلٌّ قُسِمْ)** فما أدرك العقل ثبوته أو نفيه من غير توقف على فكر واستدلال وإعمال للنظر فهو ضروري. وما احتاج في ثبوته أو نفيه إلى فكر واستدلال وإعمال للنظر فهو نظري.

أمثلة توضيحية لكل قسم	
الواجب الضروري	**الواجب لنظري**
(السماء فوقنا والأرض تحتنا) واجب عقلي ضروري؛ يدرك بداهة بلا استدلال وإعمال للنظر	**(الله قديم)** واجب عقلي نظري؛ يحتاج الى استدلال وإعمال للنظر، فيقال: لو لم يكن الله متصفا بصفة القدم لكان حادثا، وهذا محال لأنه يؤدي إلى الدور أو التسلسل وكلاهما باطل كما سيأتي بيانه.
المستحيل الضروري	**المستحيل النظري**
(الواحد أكبر من الثلاثة) مستحيل عقلي ضروري؛ يدرك بداهة بلا استدلال وإعمال للنظر	**(تعدد الآلهة)** مستحيل عقلي نظري؛ يحتاج الى استدلال وإعمال للنظر، فيقال: لو كان مع الله آلهة لأدى ذلك إلى التصادم والتنازع، ومن ثم فساد الكون كما قال تعالى: (**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**)
الجائز الضروري	**الجائز النظري**
(تحرك الأجسام وسكونها) جائز عقلي ضروري؛ يدرك بداهة بلا استدلال وإعمال للنظر	**(يجوز في حقه تعالى أن يفعل الأصلح لعباده ولا يجب عليه لا يستحيل)** جائز عقلي نظري؛ يحتاج الى استدلال وإعمال للنظر، فيقال: لو وجب عليه ذلك كما قالت المعتزلة لما آلم البهائم والأطفال وهم غير مكلفين

المبحث الثالث: أول واجب على المكلف

قال الناظم:

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى مَنْ كُلِّفَا مُمْكَّناً مِنْ نَظَـرٍ أَنْ يَعْرِفَا

اللهَ وَالرُّسْـلَ بِالصِّـفَـاتِ مِمَّا عَلَيْهَا نَصَبَ الآيَاتِ

يعني أن أول ما يجب من أمور الاعتقاد على المكلف[1] أن يعرف الله تعالى بصفاته؛ لقوله تعالى: (**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**)[2]. ومذهب أهل السنة أن معرفة الله تعالى واجبة بالشرع لا بالعقل.

وقوله: (**مُمْكَّناً مِنْ نَظَـرٍ**..) يعني إنما تجب معرفة الله على **مَنْ كُلِّفَا** إذا تمكن من النظر بعد تكليفه، بأن مده الله بمدة من الزمن تمكن فيها من النظر الذي يتوصل به إلى معرفة الخالق جل وعلا، وهذا قيد احترز به الناظم ممن بلغ سن

---

1 المكلف هو: (البالغ، العاقل، السليم الحواس، الذي بلغته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم)

2 محمد 19

التكليف ولم يتمكن من النظر، كأن فاجأه الموت أو الجنون بعد تكليفه مباشرة، فهذا لا تجب على المعرفة؛ لعدم تمكنه من النظر، والمعرفة إنما يتوصل إليها بالنظر، وهاهنا مطالب أربعة:

المطلب الأول: تعريف النظر:

المراد بالنظر هاهنا النظر العقلي لا البصري، وقد عرفه العلماء بأنه: **(ترتيب معلوم على وجه يؤدي إلى استعلام ما ليس بمعلوم)**. كأن نقول مثلا: كل صنعة لا بد لها من صانع، وكل بنيان لا بد له من بانٍ.. وإذن فكل مخلوق لا بد له من خالق، فنستدل بهذه المعلومات والنتائج المعروفة في واقعنا، على وجود الخالق جل وعلا.

كما قال سبحانه وتعالى: **(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)**[1].

---

1 يونس 101

وقال جل ثناؤه: **(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)**[1]

وقال تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)** [2]

فالنظر الذي ذكره الناظم هو التفكر في مخلوقات الله تعالى، التي تعتبر دلائل قطعية على وجود وعظمة وقدرة خالقها جل جلاله، وبإعمال النظر فيها يتوصل العبد إلى معرفة ربه، معرفة قطعية يقينيه وكأنه يراه.

---

1 آل عمران 190

2 فصلت 51

كما قال الأعرابي:

(الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَأَثَرُ الْأَقْدَامِ يَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، وبِحَارٌ ذُاتُ أَمْوَاجٍ، أَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ)!؟

المطلب الثاني: تعريف المعرفة:

والمراد بالمعرفة كما عرفها العلماء: **(الجزم المطابق للواقع عن دليل)**. وفما يلي شرح هذا التعريف:

الجزم: هو العلم القطعي اليقيني الذي لا يخالطه أدنى شك.

المطابق للواقع: هو قيد خرج به الجزم المخالف للواقع، كجزم النصارى بأن الله ثالث ثلاثة، فهذا الجزم ليس معرفة؛ لأنه غير مطابق للواقع؛ فالله سبحانه تعالى بخلاف ما يعتقدونه.

عن دليل: يعني أن الجزم المطابق للواقع إنما يكون معرفة، إذا كان ناشئا عن دليل لا عن تقليد.

والتقليد هو الأخذ بدليل الغير من غير معرفة دليله، أما إذا كان المقلد عارفا بأدلة العلماء فلا يعتبر مقلدا.

وبناء على ما تقدم قال العلماء: أن الظن والشك والوهم والتقليد، لا يُعتبر أيٌّ منهم معرفة؛ لأن المعرفة هي: **العلم الجازم المستند إلى دليل.**

وعليه فمن كان إيمانه مبنيا على ظن أو شك أو وهم، فهو كافر باتفاق العلماء[1].

وأما من كان إيمانه مبنيا على تقليد، ففيه ستة أقوال لأهل العلم ذكرها الشيخ البيجوري في شرح جوهرة التوحيد. **أصحها وأرجحها**: أنه إذا كان مؤهلا للنظر وقلد في التوحيد، فإيمانه صحيح مع الإثم، وإن كان غير مؤهل للنظر لغلبة الأمية عليه، فإيمانه صحيح بلا إثم.

---

1 أما الظن الوارد في قوله تعالى: **(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)** فالمراد به اليقين عند جمهور العلماء، انظر: تفسير القرطبي1 / 375

المطلب الثالث: المعنى الإجمالي للبيتين المتقدمين:

أن من بلغ سن التكليف وتمكن من النظر بعد تكليفه، فأول ما يجب عليه من أمور الاعتقاد ، أن يعرف الله بصفاته، وأن يعرف رسل الله بصفاتهم أيضا.

المطلب الرابع: معنى قول الناظم:(مِمَّا عَلَيْهَا نَصَبَ الآيَاتِ)

يعني أن صفات الله تعالى إنما يجب على المكلف أن يعرف منها، ما نصب الله عليه الآيات، أي أقام عليه الأدلة والبراهين الشرعية والعقلية الدالة على تلك الصفات، لأن حقيقة هذه الصفات محجوبة عن عقولنا، كحجب حقيقة ذاته سبحانه وتعالى، فهذه ونحوها لا تجب معرفتها على حقيقتها، ولا يجوز الخوض أو التفكر فيها أبدا؛ لأنها مما يستحيل إدراكها؛ قال تعالى: **(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ)** وقال تعالى: **(وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)**.

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ، ولا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ فَتَهْلَكُوا)** [1]. وقال ابن أبي زيد القيرواني في الرسالة: **(وَيَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بِآيَاتِهِ، وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَاهِيَّةِ ذَاتِهِ)**.

والحاصل: أن الواجب معرفته من صفات الله تعالى إنما هو القدر الممكن الذي أقام الله عليه البراهين الدالة عليه.

أما ما لم يقم الله عليه البراهين، فلا تجب معرفته على المكلف؛ لأنه مما لا يُدرك بالعقول، ولا تكليف بغير مقدور، قال الله تعالى: **(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)** [2].

---

1 أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني، في العظمة، بَابُ الْأَمْرِ بِالتَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقُدْرَتِهِ وَمُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، رقم الحديث: 4 وله شواهد كثيرة.

2 البقرة 186

المبحث الرابع: التكليف وشروطه

قال الناظم:

وَكُلُّ تَكْلِيفٍ بِشَرْطِ الْعَقْـلِ مَعَ الْبُلُــوغِ بِدَمٍ أَوْ حَمْلِ

أَوْ بِمَنِيٍّ أو بِإِنْبَاتِ الشّعَرْ أَوْ بِثَمانِ عَشْرَةٍ حَوْلاً ظَهَرْ

بعد أن بين الناظم رحمه الله أول ما يجب على المكلف، شرع في بيان شروط التكليف.

المطلب الأول: تعريف التكليف:

لأهل العلم في التكليف تعريفان:

أحدهما: (إلزام ما فيه كلفة). وعلى هذا التعريف لا يدخل المندوب والمكروه ضمن التكليف؛ لأنه لا إلزام في فعل مندوب ولا في ترك مكروه؛

وبناء على ذلك فلا يكون الصبي مكلفا بامثال المندوبات ولا باجتناب المكروهات؛ لخروجهما عن حد التكليف.

والثاني: (طلب ما فيه كلفة) وعلى هذا التعريف يكون المندوب والمكروه داخلَيْنِ ضمن التكليف؛ لأن المندوب مطلوبٌ امتثاله، والمكروه مطلوبٌ اجتنابه، على سبيل الاستحباب من غير حتم ولا إلزام، وبناء على ذلك يكون الصبي مكلفا بامتثال المندوبات وترك المكروهات.

وهذا التعريف الأخير هو الصحيح؛ لأن الصبي مكلف بفعل المندوبات وترك المكروهات على سبيل الاستحباب؛ بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: **(مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ)** [1].

فالولي مأمور شرعا بأمر صبيه بالصلاة، والصبي مأمور بفعلها، وكلاهما مثاب على ذلك.

والحاصل مما تقدم أن البلوغ شرط في التكليف بفعل الواجبات وترك المحرمات، وهذا هو المعتمد في مذهب مالك..

---

1 أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، رقم الحديث:495

ومن ثم فلا تجب معرفة الله على الصبي حتى يبلغ، لأن معرفة الله من الواجبات، والبلوغ شرط في فعل الواجبات.

ولكن يستحب للولي أن يلقن صبيَه معرفةَ الله تعالى ونحوَها من أمور العقيدة؛ لأنه إذا كان مأمورا شرعا بأن يعلمه الصلاة، وهي من فروع الشريعة، فمن باب أولى أن يعلمه أصول الشريعة كمسائل الاعتقاد.

المطلب الثاني: شروط التكليف

للتكليف أربعة شروط، ذكر الناظم منها اثنين، وهما العقل والبلوغ، وإليهما أشار بقوله: **(وَكُلُّ تكْليفٍ بِشرْطِ الْعَقْلِ مَعَ الْبُلُوغِ)**. وسكت عن اثنين وهما: بلوغ دعوة النبي وسلامة الحواس، وفي ما يلي تفصيل ذلك:

1- العقل: فلا تكليف على مجنون؛ لقوله صلى الله عليه وسلم:

(رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ) [1].

ويُلحق بالمجنون السكران بحلال، أما السكران بحرام فيستصحب عليه حكم تكليفه الأصلي.

والعقل مأخوذ من عقال البعير؛ وسمي كذلك لأنه يمنع صاحبه من ارتكاب ما لا يليق.

وعرفه بعض أهل العلم بأنه: **(آلة نورانية تدرك بها النفس العلوم الضرورية والنظرية)**.

ومحله القلب عند جمهور العلماء؛ لقوله تعالى: **(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)**[2].

2- البلوغ: فلا تكليف على صبي للحديث المتقدم، وللبلوغ أربع علامات:

---

1 أخرجه أبو داود في كتاب الحدود، رقم الحديث: 4403

2 الحج 46

الأولى: الحيض والحمل، وهما خاصان بالأنثى، فإذا حاضت الفتاة أو حملت فقد بلغت، وإلى هذه العلامة أشار الناظم بقوله: **(بِدَمٍ أوْ حَمْلِ)**.

والثانية: خروج المني، ويُعبر عنه بالاحتلام، وهو مشترك بين الذكر والأنثى، وإليه أشار الناظم بقوله: **(أَوْ بِمَنِيٍّ)**.

والثالثة: إنبات الشعر، أي شعر العانة المحيط بالذكر والفرْج، وهو أيضا مشترك بين الذكر والأنثى، وإليه أشار الناظم بقوله: **(أو بِإِنْباتِ الشّعَرْ)**.

والرابعة: بلوغ سن التكليف، وقد اختلف العلماء في تحديده، فقيل: خمسة عشر، وقيل: ثمانية عشر، وهو المشهور عند المالكية وعليه سار الناظم فقال: **(أَوْ بِثَمانِ عَشْرَةٍ حَوْلاً ظَهَرْ)**.

وربما كان تحديد هذا السن في الأزمنة المتقدمة، التي لم تكن فيها مغريات ومثيرات، أما في زماننا هذا فقد يبلغ الصبي أو الصبية في الثالثة عشر من العمر أو قبل ذلك،

وهذه العلامة إنما يُنظر إذا لم تظهر أي علامة من العلامات الثلاث المتقدمة.

3- بلوغ دعوة النبي: فلا تكليف على من لم تبلغه دعوة النبي المرسل إليه؛ لقوله تعالى: **(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)** [1].

قال الشيخ ميارة المالكي: **(وأسقط الناظم هذا الشرط لعدم الحاجة إليه بسبب دعوته صلى الله عليه وسلم لكل أحد)**[2]. يعني: أن دعوة نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد بلغت جميع الناس في هذا الزمان والله أعلم.

4- سلامة الحواس: فلا تكليف على فاقد الحواس المدركة، وهي السمع والبصر، فمن وُلد أصمَّ وأعمى فهو غير مكلف إجماعا، سواء ولد كذلك أو فقدهما حين التكليف.

---

1 الإسراء 15

2 الدر الثمين والمورد المعين ص 32

الفصل الثانـي:

شرح

كتاب أم القـــواعد وما انطوت عليه من العقائد

تمهيد:

قال الناظم:

(كتاب أم القواعد وما انطوت عليه من العقائد)

بعد أن فرغ الناظم من مقدمته لكتاب الاعتقاد، شرع في بيان مسائل الاعتقاد.

والمراد بالقواعد: القواعد االخمسة المذكورة في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **(بُنِيَ الْإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيْتِ)** [1].

وعبر الناظم عن القاعدة الأولى – **وهي الشهادتان** – بالأم ؛ لأنها أصل لبقية القواعد التي بعدها، وشرط في صحتها، كما أن الأم أصل للولد وشرط في وجوده.

---

1 رواه الشيخان : الخاري ومسلم

وقوله: **(وما انطوت عليه من العقائد)** أي وما اشتملت عليه من عقائد الإيمان، فعقائد الإيمان كلها مندرجة ضمن قاعدة الشهادين، كما سيأتي في قول الناظم:

وَقَــوْل لاَ إِلَــهَ إِلاّ الله　　مُحَـمَّـدٌ أَرْسَــلَــهُ الإِلَهُ

يَجْمَعُ كُلَّ هَذِهِ الْمَعانِي　　كانَتْ لِذَا عَلاَمَةَ الإِيمان

المبحث الأول: الصفات الواجبة لله تعالى

قال الناظم:

يُجِبُ لله الْوُجُودُ وَالْقِدَمْ   كَذَا الْبَقَاء وَالْغِنَى الْمُطْلَقُ عَمْ

وَخُلْفُهُ لِخَلْقِهِ بِلاَ مِثَالْ   وَوَحْدَةُ الذَّاتِ وَوَصْفٍ وَالْفِعَالْ

وَقُدْرَةٌ إِرَادَةٌ عِلْمٌ حَيَاةْ   سَمْعٌ كَــلاَمٌ بَصَرٌ ذِي وَاجِبَاتْ

ذكر الناظم في ما تقدم أن أول واجب على المكلف أن يعرف الله بصفاته التي أقام عليها البراهين، وشرع الآن في بيان الصفات الواجبة لله وجوبا عقليا، أي لا يتصور العقل انتفاءها بحال، ويجب على كل مكلف أن يؤمن بها ويثبتها لله تعالى، وعددها ثلاثة عشر صفة، سنشرح معانيها باختصار أما أدلتها الشرعية والعقلية فسيأتي بيانها في موضعها.

1- **الوجود:** ومعناها أن الله موجود، وهي صفة نفسية، نسبة للنفس[1] أي للذات العلية المقدسة، فوجوده تعالى هو عين ذاته، وقدم الناظم هذه الصفة لأنها كالأصل لما بعدها من الصفات.

2- القدم: وهي صفة سلبية تسلب أي تنفي عن الله تعالى ما لا يليق بجلاله من الحدوث، ومعناها أن الله تعالى ليس بحادث، وليس لأوليته ابتداء، واختلف العلماء في جواز إطلاق اسم القديم على الله؟ **فقيل:** لا يجوز؛ لأن أسماء الله توقيفية. **وقيل:** يجوز؛ لأن صفة القدم واجبة لله عقلا؛ ولأنه قد ورد في الحديث اسم القديم معدودا من الأسماء الحسنى[2].

3-البقاء: وهي صفة سلبية تسلب أي تنفي عن الله تعالى

---

1 يجوز إطلاق النفس على الله تعالى، وقد ورد ذلك في القرآن العظيم، قال تعالى: **(كتب ربكم على نفسه الرحمة)**. وقال تعالى: **(ويحذركم الله نفسه)**. وقال تعالى على لسان نبيه عيسى: **(تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك)**.

2 هذا الحديث رواه ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة رقم الحديث: 3861

ما لا يليق بجلاله من الفناء، ومعناها دوام واستمرار وجوده تعالى أبدا، فليس لآخريته انتهاء.

4- الْغِنَى: وهي صفة سلبية تسلب أي تنفي عن الله تعالى ما لا يليق بجلاله من الافتقار، وتسمى هذه الصفة بالقيام بالنفس، ومعناها أن الله تعالى قائم بنفسه، مستغنٍ عن كل شيء، فلا يفتقر إلى ذات يوجد فيها، ولا إلى فاعل يخصصه بالوجود، أي يخصصه بأن يوجد في مكان أو زمان معين، ولا إلى شيء يستعين به على قيامه أو حياته أو علمه أو قدرته.. فغناه تعالى مطلق عام في كل شيء، وهو معنى قول الناظم: **(وَالْغِنَى الْمُطْلَقُ عَم).**

5- مخالفته للحوادث: وإليها أشار الناظم بقوله: **(وَخُلْفُهُ لِخَلْقِهِ بِلاَ مِثَالْ)**، وهي صفة سلبية تسلب أي تنفي عن الله تعالى ما لا يليق بجلاله من المماثلة لخلقه، ومعناها أن الله تعالى لا يماثله شيء من مخلوقاته، فلا يوصف بشيء مما توصف به المخلوقات، من جسمية وجلوس، وحركة وسكون، وكبر وصغر، وفوقية وتحتية... فكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

وما ورد في القرآن والحديث من ألفاظ يوهم ظاهرها التشبيه، كقوله تعالى: **(الرحمن على العرش استوى)**. وقوله تعالى: **(يد الله فوق أيديهم)**. وقوله تعالى:**(فإنك بأعيننا)**. وكحديث: **(قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن)**. وحديث: **(ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى السماء الدنيا)**.

* فطريقة السلف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين كمالك والشافعي التسليم في كل ذلك؛ فيثبتونها لله تعالى كما ثبتت في نصوص القرآن والسنة، ويفوضون معانيها إلى الله، مع تنزيه الله تعالى عما يتبادر للذهن من معاني ظواهر تلك النصوص. **(وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا)**[1].

وقد سئل الإمام مالك رضي لله عنه عن قوله: **(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)**؟ فقال: **(الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ)**.

فقوله: **(معلوم)** يعني: أنَّ له معانيَ معلومة في كلام العرب.

---

1 آل عمران 7

وقوله: **(والكيف غير معقول)** هو نفي لما يتبادر للذِّهن من معنى الاستقرار والجلوس المعروفَيْن في واقعنا، لأنهما من صفات الأجسام، سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا.

وقوله: **(والإيمان به واجب)** لأن الله أثبته لنفسه في القرآن العظيم.

وقوله: **(والسؤال عنه بدعة)** لأنه لم يكن من عادة السلف السؤال عنه أو الخوض فيه، ولأنه من تتبع المتشابه الذي نهينا عنه.

* وذهب الخلف من أئمة المسلمين إلى تأويل تلك الصفات؛ تنزيها لله تعالى عن المشابهة والمماثلة، فيقولون مثلا: المراد باليد القدرة، والمراد بالاستواء الاستيلاء، والمراد بالعين البصر... ولكل تلك التأويلات ما يؤيدها في اللسان العربي.

* وذهبت فرقة الوهابية أو السلفية إلى حمل تلك الصفات على ظاهرها؛ فلزمهم تجسيم الخالق وتشبيهه بخلقه والعياذ بالله.

وهذا من أقبح البدع المحدثة في الدين، التي لا أصل لها في منهج السلف الماضين، والمناقضة لقوله تعالى: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)** [1].

وأعلم بأن طريقة السلف هي الأسلم، وبها أوصى كثير من أئمة المسلمين، ومن أقوالهم في ذلك:

ونركَبُ للتَّسليمِ سُفْناً فإنّها لتسليمِ دينِ المرءِ خيرُ المراكِبِ

وقال إمام الحرمين الجويني:

(فحق على ذي دين أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب تبارك وتعالى)[2].

---

1 الشورى11

2 العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، لبرهان الدين الجويني، ص166

وبهذه العقيدة أتعبد مولاي جل جلاله وبها أنصح كل مسلم، وقد نظمت في ذلك:

قُــــلْ لِلَّــذِي يَـنْسِـــــبُ لِلَّهِ يَـدَا وَنَحْـوَ ذَا كَالِاسْتَــوَا كَــمَا بَـدَا

فَي الْوَحْيِ، قَدْ أَخْطَأْتَ نَهْجًا سَدَدَا فَقَـدْ نَسَبْـتَ لِلْقُــــدُوسِ جَسَـدًا

وَمَــا يُمَاثِــــلُ السَّــــــلاَمُ أَحــدَا سُبْحَــــانَهُ عَـمَّا تَقَـولُ سَرْمَدَا

وَقُــــلْ لِمَــــنْ أَوَّلَ مَعْنَى مَا ذُكِــرْ لَعَــلَّ ذَا غُيْـــــرُ مُــرَادِ الْمُقْتَدِرْ

وَصَالِحُ الْأَسَلاَفِ عَنْ ذَيْنِ انْصَرَفْ وِالْخَيْرَ رُمْ فِي الِاقْتِدَا بِمَنْ سَلَـفْ

وَأَوَّلٌ جَـانٍ وَقِيـــلَ قَـــدْ كَفَــرْ وَالثَّانِ سَالِــمٌ وَلَكِــنْ مَا ظَفَرْ

بَأَسْلَـــــمٍ نَحَـــاهُ سَـــــادَةٌ غُــرَرْ إِذْ نَزَّهُـــوا خَالِقَهُمْ عَـمَّا ابْتَدَرْ

لِلذِهْـــنِ مِنْ مُحَـــالِ ظَاهِــرٍ وَرَدْ وَفَوَّضُـــوا مَعْنَــاهُ لَلْبَرِّ الصَّمَدْ

وَوَصَفُـــوا ذَا بِسِفِينَـــــةِ النَّــجَا وَهِــــيْ لِدِينِ الْمَرْءِ خَيْرُ مُرْتَجَى

6- وحدة الذات أو الوحدانية: وإليها أشار الناظم بقوله :
(وَوَحْدَةُ الذَّاتِ وَوَصْفٍ وَالْفِعَالْ)، وهي صفة سلبية تسلب أي تنفي عن الله تعالى ما لا يليق بجلاله من التعدد، ومعناها: أن الله تعالى واحد فلا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

* فوحدة الذات تنفي عنه سبحانه وتعالى التعدد والتركيب.

* ووحدة الصفات تنفي مشابهة صفاته تعالى لصفات المخلوقين.

* ووحدة الأفعال تنفي أي اختراع لغيره تعالى، فهو وحده المتفرد باختراج جميع الكائنات.

وهذه الصفة من أعظم الصفات، فهي ركن شهادة أن لا إله إلا الله، ومنها اشتُقَّ اسم هذا العلم الجليل؛ فسمي بعلم التوحيد.

7- القدرة: وهي صفة من صفات المعاني، قائمة بذاته تعالى قديمة كقدم ذاته، متعلقة بالممكنات أي الجائزات،

وبقدرته تعالى يتم إخراج الممكنات[1] من العدم إلى الوجود، ومن الوجود إلى العدم، وفق ما أراد سبحانه وتعالى.

8- الإرادة[2]: وهي صفة من صفات المعاني، قائمة بذاته تعالى قديمة كقدم ذاته، متعلقة بالممكنات، والإرادة والمشيئة بمعنى واحد، ومعناها أن الله تعالى يفعل ما يريد بمحض اختياره، دون إجبار ولا إكراه، وبإرادته تعالى يتم تخصيص جميع الممكنات المتقابلات، فبإرادته تعالى:

* يُخصَّصُ شيء بالوجود وآخر بالعدم.

---

1 يقول العلماء أن صفة القدرة متعلقة بالجائزات؛ لأن أفعال الله اختيارية، بمعنى أنه لا يجب عليه فعل شيء، وأن قدرته تعالى لا تتعلق بالمستحيلات، كإيمان أبي لهب وأمثاله ممن ماتوا على الكفر، وليس ذلك لعجز قدرة الله عن هدايتهم، وإنما لعلمه السابق بأنهم لن يؤمنوا وإرادته عدم إيمانهم، ولذلك قالوا: القدرة لا تتعلق إلا بالممكنات أي الجائزات، أما المستحيلات فليس مقدورا عليها ولا معجوزا عنها.

2 **الإرادة**: تخالف الأمر والرضا: فالله قد يريد الشيء ويأمر به ويرضاه كإيمان الأنبياء وعامة المؤمنين. وقد لا يريده ولا يأمر به ولا يرضاه ككفر المؤمنين. وقد يريده ولا يأمر به ولا يرضاه ككفر أبي لهب وعامة الكافرين. وقد لا يريده ويأمر به ويرضاه كإيمان الكافرين.

* ويخصص شيء بالبياض وآخر بالسواد.

* ويخصص شيء بالطول وآخر بالقصر.

* ويخصص شيء بالذكورة وآخر بالأنوثة.

* ويخصص شيء بأن يوجد في زمان معين لا قبله ولا بعده.

* ويخصص شيء بأن يوجد في جهة وآخر في جهة أخرى.

فلا يكون في ملك ربنا إلا ما شاء وأراد، من خير أو شر، ومن طاعة أو معصية، ومن إيمان أو كفر، فالمؤمن إيمانه بإرادة الله، والكافر كفره بإرادة الله، قال تعالى: **(فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)** [1]. وقال تعالى: **(وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)**[2].

---

1 النحل 93

2 الانسان 9

وأفعال العبد كلها مخلوقة لله جل جلاله، بما فيها مشيئته وإرادته، قال الله تعالى: **(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)**(1).

والعبد مختار في كسب في أفعاله المخلوقة لله عز وجل، قال تعالى: **(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)**(2).

وقال تعالى: **(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)**[3]. وقال تعالى: **(وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ)**[4]. وقال تعالى: **(الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)**[5]. وقال تعالى: **(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)**[6].

ولكن العبد لا يقدر على كسب أفعاله الاختيارية إلا إذا أقدره الله على ذلك، ولو شاء الله أن تتعطل قدرة العبد لتعطلت في أي لحظة، كما قال صاحب الجوهرة:

---

1 الصافات 96

2 الانسان 3

3 البقرة : 286

4 البقرة : 225

5 غافر : 17

6 الزمر : 48

وَعِنْدَنَا لِلْعَبْدِ كَسْبٌ كُلِّفَا   بِهِ وَلَكِنْ لَمْ يُؤَثِّرْ فَاعْرِفَا

واعلم بأن إرادة الله تعالى متعلقة بعلمه الأزلي الكاشف لما هو كائن إلى يوم القيامة وبعد يوم القيامة.

فما علم الله أنه سيكون أراده ثم أظهره بقدرته، كإيمان الأنبياء وعامة المؤمنين، الذين علم الله في سابق علمه أنهم سيختارون طريق الإيمان.

وما علم أنه لن يكون لم يرده، ومن ثم تركه في طيات العدم، كإيمان أبي لهب وسائر من اختار طريق الكفر ومات عليه.

وبهذا يتبين لك معنى الآيات القرآنية الواردة في الهداية والإضلال، كقوله تعالى: **(فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)** [1]. وقوله تعالى: **(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)** [2].

---

1 النحل 93

2 النحل 93

فمن لا يفقه معانى هذه الآيات قد يقع في شبهة وتلتبس عليه الأمور، فيقول: لماذا يعذبني الله وهو الذي أضلني؟ **والجواب:** أن المراد من هذه الآيات أن مشيئة الله مطلقة لا حدود لها، ولا سلطان لأحد عليها، ولكنها مشيئة عادلة لا ظلم فيها.

فالله سبحانه لا يهدي إلا من طلب الهداية وحرص عليها وسلك الطريق الموصلة إليها؛

قال تعالى: **(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)**[1]. وقال تعالى: **(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)** [2].

وقال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)** [3].

ولا يضل إلا من استحق الإضلال وسلك الطريق المؤدية إليه؛

---

1 محمد 17

2 النور 54

3 يونس 9

قال تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)[1].

وقال تعالى:

(كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[2].

وقال تعالى:

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) [3].

---

1 الصف 5

2 آل عمران 86

3 آل عمران 86

والحاصل أن الإنسان صانعٌ مستقبلَه بنفسه؛ لكونه مختارا في كسب أفعاله، فإن كسب خيرا وفقه الله وأعانه، وإن كسب شرا فلا يلومنَّ إلا نفسه،

كما قال تعالى: **(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)** [1].

وفي الحديث القدسي: **(يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ)** [2].

فالإنسان ليس مجبرا على كسب أفعاله كما قالت الجبرية، فلو كان كذلك لكان التكليف عبثا، ولنسبنا الظلم لله سبحانه وتعالى، وهو القائل:

---

1 القصص 56

2 أخرجه مسلم في صحيحه، باب: تحريم الظلم، رقم الحديث: 55 – (2577)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) [1].

كما أنه ليس خالقا لأفعاله كما قالت المعتزلة؛ فلو كان كذلك لانتهى بنا الأمر إلى إثبات خالقين مع الله، القائل جل ثناؤه: **(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ)**[2].

وبهذا يتجلى لك معنى قول السادة الأشاعرة، بأن العبد مجبر في الباطن ومخير في الظاهر، فقد سلكوا بذلك نهجا وسطا بين الجبرية والمعتزلة، وخير الأمور أوسطها، وما كان من المذاهب وسطا كان أجدر بالاتباع.

9- العلم: وهي صفة من صفات المعاني، قائمة بذاته تعالى

قديمة كقدم ذاته، تتعلق بجميع أقسام الحكم العقلي، من واجبات ومستحيلات وجائزات، وبها تنكشف جميع المعلومات، من غير سبق خفاء، فيعلمها الله جميعا على ما

---

1 النساء 40

2 فاطر 3

هي عليه من الحالات، ما ظهر منها وما بطن، وما كان منها وما لم يكن.

والعلم والمعرفة مترادفان، ولكن لا يجوز إطلاق اسم العارف على الله تعالى، لأن أسماءه تعالى توقيفية.

10- الحياة: وهي صفة من صفات المعاني، قائمة بذاته تعالى، قديمة باقية شأنها كشأن جميع صفاته الأزلية، ولا تتعلق بشيء بل هي قاصرة على قيامها بذاته جل وعلا.

11- السمع: وهي صفة من صفات المعاني، قديمة أزلية قائمة بذاته تعالى، تتعلق بجميع الموجودات، وبها تنكشف جميع المسموعات، انكشافا زائدا على العلم، فيسمعها الله جميعا في آن واحد، وذلك معنى الدعاء المأثور: (**يَا مَنْ لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، وَيَا مَنْ لَا تُغْلِطُهُ المَسَائِلُ، وَيَا مَنلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ المُلِحِّينَ، أَذِقْنِي بَرْدَ عَفْوِكَ وَحَلاوَةَ رَحْمَتِكَ)**[1].

---

1 أخرجه الخطيب البغدادي، انظر كشف الخفاء للمقدسي ص 396.

12- الكلام: وهي صفة من صفات المعاني، قائمة بذاته تعالى قديمة كقدمه، تتعلق بجميع أقسام الحكم العقلي، من واجبات ومستحيلات وجائزات تَعَلُّقَ دِلالةٍ؛

* فإذا تعلق كلامه بطلب فعل شيء فهو: **أمر**.

* وإذا تعلق بطلب ترك شيء فهو: **نهي**.

* وإذا تعلق بأن الطائع له الجنة فهو: **وعد**.

* وإذا تعلق بأن العاصي له النار: فهو: **وعيد**.

* وإذا تعلق بحكاية قصص الأنبياء والطغاة كفرعون وقارون فهو: **خبر**.

وكلامه سبحانه وتعالى منزه عن مماثلة كلام المخلوقين، فلا تأخير فيه ولا تقديم، ولا يلحقه عدم وما في معناه كالسكوت، وهو ليس بحرف ولا صوت؛ لأنه صفة قديمة والحروف والأصوات حادثة.

ومن كلامه القرآن العظيم، فهو صفة قائمة بذاته تعالى، قديمة كقدمه وليس بمخلوق، وما دل على الحدوث، كوصف

القرآن بالبلاغة والفصاحة، وكقولنا في تعريفه: **(هُوَ اللَّفْظُ الْمُنَزَّلُ عَلَى مُحَمَّدٍ الْمُنْتَظِمُ مِنْ الْحُرُوفِ الْمَسْمُوعَةِ)**. فهو محمول على اللفظ الدال على المعنى القائم بذات الله تعالى، فقولنا عن حروف القرآن المكتوبة في المصاحف بأنها كلام الله، هو من باب تسمية الدال على المدلول، أي أن حروف القرآن دالة على أنه كلام الله، وليست هي نفس كلامه.

قال صاحب الجوهرة:

وَنَزِّهِ الْقُـرْآنَ أَيْ كَلَامَهُ عَنْ الْحُـدُوثِ وَاحْـذَرِ انْتِقَامَهُ

وَكُلُّ نَصٍّ لِلْحُدُوثِ دَلَّا أَحْمِلْ عَلَى اللَّفْظِ الَّذِي قَدْ دَلَّا

13- البصر: وهي صفة من صفات المعاني، أزلية قائمة بذاته تعالى، متعلقة بجميع الموجودات، وتنكشف بها جميع الْمُبْصَرَاتِ، ظاهرها وباطنها على حد سواء، فليس عند ربنا خفي وأخفى، أو جلي وأجلى.

وقول الناظم: **(ذِي وَاجِبَاتْ)** يعني : أن هذه الصفات التي تقدم ذكرها واجبة لله تعالى، فلا تقبل النفي بحال ولا يتصور العقل انتفاءها عن الله جل جلاله.

خلاصة الصفات الواجبة

الصفة نفسية	الصفات السلبية	صفات المعاني
الوجود	القدم البقاء الغنى المخالفة للحوادث الوحدانية	القدرة الإرادة العلم الحياة السمع البصر الكلام

فالصفة النفسية والصفات السلبية لا تتعلق بشيء، وصفات المعاني تنقسم باعتبار التعلق إلى ثلاثة أقسام:

1- القدرة والإرادة : يتعلقان بالجائزات الممكنات.

2- العلم والكلام: يتعلقان بأقسام الحكم العقلي من واجبات ومستحيلات وجائزات.

3- السمع والبصر: يتعلقان بالموجودات.

ويُستثنى من صفات المعاني: (الحياة) فلا تتعلق بشيء.

ومعنى التعلق: أنها تستلزم أمرا زائدا عن محلها، فصفة الحياة تدل على أن الله متصف بالحياة ولا تستلزم أمرا آخر، بخلاف صفة السمع مثلا: فهي تدل على أن الله متصف بالسمع، وتدل على معنى آخر وهو تعلق سمعه بجميع الموجودات، وقل مثل ذلك في باقي الصفات.

قال الشيخ الدردير في الخريدة البهية في علم التوحيد:

وواجِبٌ تَعْليقُ ذِي الصِّفـاتِ حَتْماً دَوَاماً مَا عَدَا الْحَيَاةِ
فَالعِلْمُ جَزْماً والكَلامُ السَّامِي تَعَلَّـقَا بِسَائِــرِ الأَقْسَـامِ
وقُــــــدرةٌ إرادةٌ تعَـلَّــقَا بِالمُمْكِنَاتِ كُلِّهَا أخَا التُّقَى
وَاجْزِمْ بأَنَّ سَمْعَهُ والبَصَـرَا تَعَلَّــقَا بِكُــلِّ مَوْجُـودٍ يُرَى

المبحث الثاني: الصفات المستحيلة في حق الله

قال الناظم:

وَيَسْتَحِيلُ ضِدُّ هَذِهِ الصِّفاتْ العَدمُ الْحُدُوثُ ذَا لِلْحادِثَاتِ

كَذَا الْفَنَا وَالاِفْتِقَارُ عُدَّهْ وَأَنْ يُمَاثِلَ وَنَفْيُ الْوحْدَهْ

عَجْزٌ كَرَاهَةٌ وَجَهْلٌ ومَمَات وَصَمَمٌ وَبَكَمٌ عَمًى صُمَاتْ

بعد أن فرغ الناظم من الصفات الواجبة لله، شرع في بيان الصفات المستحيلة في حقه.

والمستحيل: هو المحال الباطل، الذي لا يمكن وقوعه، ولا يتصور العقل وجوده أبدا، كما قال الناظم: **وما أبى الثبوت عقلا المحال.**

والضد: لغة: هو المنافي. واصطلاحا هو: **(الأمر الوجودي الذي يقابل أمرا آخر، بحيث يستحيل اجتماعهما)**. كالليل والنهار، والبياض والسواد..

وإذن: فالصفات المستحيلة في حق الله هي الصفات المنافية والمضادة للصفات الواجبة، التي تقدم ذكرها، وبيانها كالآتي:

1- **العدم:** وهو ضد الوجود، فيستحيل العدم في حق واجبِ الوجودِ، الموجود قبل كل موجود، والذي لولاه ما وُجِد موجود.

2- **الحدوث:** وهو ضد القدم، ومعناه الوجود بعد العدم، وهو محال في حق القديم الأول بلا بداية.

وقوله: **(ذَا لِلْحادِثَاتِ)** يعني: أن الحدوث صفة للحادثات، أي للمخلوقات الموجودة بعد العدم، والله منزه عن ذلك.

3-**الفناء**: وهو ضد البقاء، ومعناه العدم بعد الوجود، تعالى الباقي الوارث عن ذلك علوا كبيرا.

4-**الافتقار**: وهو ضد الغنى، ومعناه الاحتياج إلى محل يوجد فيه، أو إلى فاعل يوجده، أو إلى معين يستعين به على شؤونه، وكل ذلك محال في حق الغني، القائم بنفسه المقيم لغيره.

وإيجاده سبحانه للعرش والكرسي والقلم واللوح المحفوظ والملائكة إنما هو لِحِكَمٍ لا نعلمها، وليس لكونه سبحانه وتعالى محتاجا إليها، وفي ذلك قال صاحب الجوهرة:

وَالْعرْشُ وَالْكُرْسِيُّ ثُمَّ الْقَلَمُ وَالْكاتِبُونَ اللَّوْحُ كُلٌّ حِكَمُ

لاَ لاِحْتِـيَاجٍ وَبِهَا الإِيـمَانُ يَجِبْ عَلَيْكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ

وقول الناظم: **(وَالاِفْتِـقَارُ عُدَّهْ)** أي أحسبه من المستحيلات.

5- **المماثلة للحوادث**: وهي ضد عدم المماثلة، فتعالى الفرد الصمد الذي ليس كمثله شيء عن ذلك علوا كبيرا.

6- **التعدد:** وهو ضد الوحدانية، فيستحيل أن تكون ذات الواحد الأحد مركبة من أجزاء، أو يكون معه شريك في الملك، أو يوجد في الحوادث من يماثله في صفاته وأفعاله.. وإلى هذه الصفة أشار الناظم بقوله: **(وَنَفْيُ الْوحْـدَهْ)**

7- **العجز:** وهو ضد القدرة، فيستحيل عقلا ونقلا أن يعجز القادر المقتدر عن إيجاد ممكن أو إعدامه.

8- **الكراهة**[1]: وهي ضد الإرادة، فيستحيل أن يقع في ملك الفعّال لما يريد شيء من غير إرادته واختياره.

9- **الجهل:** وهو ضد العلم، فيستحيل أن يتصف العالم العليم

بالجهل وما في معناه، كالنسيان والنوم والنعاس والسِّنة والغفلة والذهول والظن والشك والوهم.. كما يستحيل في حقه الاستفهام والتعجب؛ لأنهما يستلزمان الجهل بالشيء، وما ورد

---

1 **الكراهة نوعان:** عقلية وشرعية، فالعقلية هي أن يقع في ملك ربنا ما لا يريد وهذا محال. وأما الشرعية فهي من أقسام الحكم الشرعي، وهي طلب الكف عن الفعل طلباً غير جازمٍ.

في القرءان العظيم من استفهام، فلا يُراد به الاستعلام، وإنما يُراد به الإيناس وإزالة الاندهاش؛ كقوله تعالى لنبيه موسى عليه السلام: **(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)**[1].

وقد يُراد به إظهار الحوادث؛ كقوله تعالى لنبيه إبراهيم: **(قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)**[2].

10- الممات: وهي ضد الحياة، تعالى الحي الذي لا يموت عن ذلك علوا كبيرا.

11- الصمم: وهو ضد السمع، فيستحيل ذلك في حق السميع العيلم.

12- البكم: وهو ضد الكلام، فيستحيل في حقه تعالى البكم وما في معناه كالخرس.

13- العمى: وهو ضد البصر، فيستحيل في حق البصير العمى وما في معناه كالعور.

---

1 طه 17

2 القرة 260

وقول الناظم : **(صُمَاتْ)** يعني: مما يستحيل في حق الله: الصمات والمراد به الصمت، وهو قطع الكلام بعد التكلم.

كما يستحيل في حقه السكوت، وهو: ترك الكلام اختيارا، أي أنه ليس أبكم ولكنه لا يتكلم اختيارا.

المبحث: الثالث: ما يجوز في حق الله تعالى

قال الناظم:

يَجُوزُ فِي حَقّهِ فِعْلُ الْمُمْكِناتِ بِأَسْرِهَا وَتَرْكهَا فِي الْعَدَمَاتِ

بعد أن فرغ الناظم من بيان الصفات الواجبة لله، والصفات المستحيلة في حقه، شرع الآن في بيان ما يجوز عقلا في حقه تعالى، وقد سبق وأن عرف الجائز العقلي بقوله: (**وجَائِزاً مَاقَبْلَ الأَمْرَيْنِ سِمْ**).

وبين هاهنا أنه يجوز في حق الله أن يفعل كل الممكنات أو يتركها في العدم.

والممكنات: جمع ممكن وهو: ما يحكم العقل باستواء وجوده وعدمه، كالقيام والقعود والحركة والسكون..

وقوله: (**بِأَسْرِهَا**) أي جميعها، من أرض وأبحر وسماوات ونجوم، وجن وملائكة وبشر، وحيوانات وحشرات وطيور، وإرسال للرسل، وإثابة للطائعين وعقوبة للعاصين، ونصر للمؤمنين ومحق للكافرين، وإعزاز لأوليائه وإذلال لأعدائه...

فكل ذلك وغيرُه يجوز عقلا في حق الله أن يفعله ويجوز أن لا يفعله، ولا يجب عقلا على الله أن يفعل شيئا من ذلك، ولا يستحيل عقلا أن لا يفعله، بل يفعل منه ما يشاء ويترك ما يشاء، ولا يسأل عما يفعل.

فلا يجب عليه عقلا أن يُدخل المؤمنين الجنةَ، ولا يجب عليه عقلا أن يدخل الكافرين النار، بل يفعل ذلك بمحض فضله أو عدله، كما قال صاحب الجوهرة:

فَإِنْ يُثِبْنَا فَبِمَحْضِ الْفَضْلِ   وَإِنْ يُعَذِّبْ فَبِمَحْضِ الْعَدْلِ

فإن قيل: كيف لا يجب ذلك وقد أخبر الله بوقوعه، حيث وعد المؤمنين بالجنة، ووعد الكافرين بالنار؟

فالجواب: أن ذلك ليس واجبا عقليا، بل هو واجب عرضي تعلق به علم الله تعالى واتجهت إليه إرادته.

* فبالنظر إليه من هذه الناحية لا يُتصوَّر في العقل عدمُه، فلا يجوز من هذه الناحية أن نعتقد أن الأنبياء وصالح المؤمنين قد يُحرمون من دخول الجنة، وأن أبا لهب وأمثالَه قد ينجون من النار.

* أما بالنظر إلى ذاته فيجوز في العقل وجوده وعدمه. والوجوب المنفي عن الله هاهنا إنما هو الوجوب العقلي، الذي لا يُتصور في العقل عدمُه، وقد سبق وأن بينا بأن الواجب العقلي هو الذي يكون وجوبه نابعا من ذاتيته لا من جهة منفصلة عنه؛ ولذلك سُمى واجبا ذاتيا.

ولنضربْ لذلك مثلا توضيحيا برخصة السياقة:

* فمن الناحية القانونية يجب على السائق أن يحملها أثناء السياقة، وإلا تعرض للعقوبة.

* ومن الناحية العقلية قد يحملها وقد لا يحملها لسبب ما؟

وإذن: فحمل رخصة السياقة واجب عرضي، عرض له الوجوب – أي طرأ عليه – من ناحية خارجية منفصلة عن ذاته وحقيقته، وهي: النص القانوني الذي أوجب ذلك.

ولكنه في حد ذاته جائز عقلا؛ فقد يكون وقد لا يكون كما ذكرنا.

ولنضرب لذلك مثلا آخر بمسألة فقهية:

فلو قلت القيام في الصلاة واجب، فذلك واجب شرعي، قد عرض له الوجوب من جهة خارجية منفصلة عن ذاته، وهي إخبار الشرع به، ولكنه ليس واجبا وجوبا عقليا؛ لأن الواجب العقلي هو ما لا وجود له في الواقع، وما أكثر ما نرى في الواقع الذين يصلون قعودا.

وبهذا يتضح لنا مفهوم الواجب العقلي والمستحيل العقلي والجائز العقلي في المجال العقائدي.

واعلم بأن الجائز العقلي على ثلاثة أقسام

1- **مقطوع بوجوده:** كالبعث والحساب والثواب والعقاب.. وهذا هو الواجب العرضي.

2- **مقطوع بعدم وجوده:** كدخول أبي لهب وأبي جهل والكافرين الجنةَ.. وهذا هو المستحيل العرضي.

فما كان من قبيل القسم الأول فيجب اعتقادُ وجودِه، وما كان من قبيل القسم الثاني فيجب اعتقادُ عدمِه؛ لأن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قد أخبرا بوقوع الأول وعدمِ وقوع الثاني، والكذب في حق الله ورسوله محال.

ولكن لا الأول واجب على الله عقلا أن يفعله، ولا الثاني مستحيل عليه عقلا، بل كلاهما جائز في حقه تعالى جوازا علقيا، فيفعل من ذلك ما يشاء ويترك منه ما يشاء.

3- **محتمل للوجود والعدم:** كالعفو عن المسئين، وقبول طاعات الطائعين، وكفوزنا بحسن الخاتمة، وسلامتنا من عذاب الآخرة، فنسأل الله تعالى أن يمنَّ علينا بحسن الخاتمة، وأن يتفضَّل علينا بدخول الجنة والنجاةِ من النار.

المبحث الرابع: أدلة الصفات الواجبة للة تعالى

قال الناظم:

وُجُـــودُهُ لَهُ دَلِيـــلٌ قَاطِـــــعْ   حَاجَــــةُ كُلِّ مُحْدِثٍ لِلصَّانِعْ

لَوْ حَدَثَــتْ لِنَفْسِـــهَا الأَكْـــوَانُ   لاَجْتَمَعَ التَّـسَاوِي وَالرُّجْحَـانُ

وَذَا مَحَــالٌ ، وَحُــــدُوثُ العَالَمِ   مِنْ حَدَثِ الأعْرَاضِ مَعْ تَلاَزُمِ

لَوْ لَـمْ يَكُ الْقِــدَمُ وَصْـفَـهُ لَـزِمَ   حُـدُوثُـهُ دَوْرٌ تَسَلْسُـلٌ حُتِمْ

لَوْ أمْكَــنَ الْفَنَاءُ لاَنْتَفَى الْقِــدَمُ   لَوْ مَاثَلَ الْخَلْقَ حُدُوثُهُ انْحَتَمْ

لَوْ لَمْ يَجِبْ وَصْفُ الْغِنَى لَهُ افْتَقَرْ   لَوْ لَمْ يَكُـــنْ بِوَاحِـدٍ لَمَا قَدَرْ

لَوْ لَمْ يَكُـــنْ حَـيّاً مُرِيداً عَالِماً   وَقَــادِراً لَـمَا رَأَيْــتُ عَـالَـماً

وَالتَّالِ فِي السِّتِّ الْقَضايَا بَاطِـلُ   قَطْـــعاً مُقَــدَّمٌ إِذاً مُماثِـــلُ

بعد أن فرغ الناظم من بيان ما يجب لله، وما يستحيل في حقه وما يجوز، شرع الآن في بيان البراهين الدالة على ذلك، وبفقه هذه البراهين العقلية والمنطقية التي ذكرها الناظم،

يخرج المكلَّف من التقليد في العقيدة، الذي اختلف العلماء في صحة إيمان صاحبه.

وفي ما يلي بيان تلك الأدلة:

1- **دليل الوجود:**

قال الناظم:

وُجُــودُهُ لَهُ دَلِيــلٌ قَاطِـــعْ   حَاجَـــةُ كُلِّ مُحْدِثٍ لِلصَّانِعْ[1].

لَوْ حَدَثَـتْ لِنَفْسِـــهَا الأَكْـــوَانُ   لاَجْتَمَعَ التَّسَاوي وَالرُّجْحَـانُ

وَذَا مَحَـالٌ ، وَحُـــدُوثُ العَالَمِ   مِنْ حَدَثِ الأعْرَاضِ مَعْ تَلاَزُمِ

---

1 اختلف في إطلاق لفظ الصانع على الله، فقيل: لا يجوز؛ لأن أسماء الله توقيفة، وهذا اللفظ لم يرد في قرآن ولا سنة. وقيل: يجوز؛ لأنه وإن لم يرد فقد ورد معناه في القرآن والسنة، قال تعالى: **(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)** وفي الحديث: **(إن الله صانع كل صانع وصنعته)** رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم 187

يعني: أن وجود الله تعالى له دليل قاطع لكل حجة، وداحض لكل شبهة، وهو: حاجة كلِّ محدَث – أي كل موجود بعد العدم – للصانع، الذي صنعه وأوجده.

فالعقل لا يتصور أن توجد صنعة من غير صانع، فالهاتف النقال – مثلا – لا يتصور العقل وجودَه دون صانع صنعه، فنحن نؤمن إيمانا جازما بصانع هذا الهاتف وإن كنا لم نره، وقلْ مثل ذلك في السيارة والطائرة والكراسي والأقلام وسائر الموجودات...

فكيف إذًا بهذا الكون العظيم! وما اشتمل عليه من مخلوقات عجيبة لا حصر لها! أيعقل أن يكون قد وُجد من غير خالق أوجده وأتقن صنعه!؟

قال الله جل جلاله: **(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)** [1].

وقال تعالى: **(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)**[1].

---

1 لقمان11

وقال تعالى: (**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ**)[2].

فالآية الأخيرة فيها ثلاثة احتمالات: إما أنهم خُلقوا من لا شيء؟ وإما أنهم خلقوا أنفسهم؟ وإما أنهم خلقوا السماوات والأرض؟

والاحتمالان الثاني والثالث لم يدَّعهما أحد، فلم يجرؤْ ولن يجرؤَ أحد ولو كان ملحدا أن يدّعي بأنه خلق نفسه، أو أنه شارك في خلق شيء من السماوات والأرض.

فبقى الاحتمال الأول، وهو أنه خُلقوا من غير شيء، أي من غير خالق خلقهم، وهو احتمال باطل؛ لما علمتَ من حاجة كل محدَث للصانع.

فثبت يقينا بالدليل القاطع أن هناك إلها خالقا لنا ولهذا الكون العظيم، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

---

1 النمل88

2 فاطر 36

وبهذا يتجلى لك أن ما ذكره الناظم من براهين عقلية ومنطقية، مأخوذ من إسلوب القرآن نفسه في إثبات مسائل الاعتقاد، ومنسجم معه انسجاما تاما؛ وبهذا يبطل ما يثيره بعضهم من شبهات، حول منظومة ابن عاشر الفريدة، وما يدعونه من قولهم: أن طرح المسائل العقائدية بهذه المنهجية المنطقية، هو عبارة عن فلسفة لا أصل لها في القرآن والسنة.. وهذا من الجهل بحقائق القرآن العظيم، بل هو دعوة إلى تعطيل العقول عن وظيفتها، وفيه مناقضة صريحة لما أمر الله به من إعمال النظر؛ لأجل التوصل إلى معرفة الله تعالى، معرفة يقينيةً ناشئة عن دليل قاطع لا عن تقليد.

استحالة حدوث الأكوان بنفسها

قال الناظم:

لَوْ حَدَثَـتْ لِنَفْسِـهَا الأَكْـوَانُ لاَجْتَمَعَ التَّسَاوي وَالرُّجْحَـانُ

وَذَا مَحَـالٌ ...

يعني: لو قيل: - كما قالت الدهرية والملاحدة - بأننا لا نسلم باحتياج كل محدَث للصانع.

فالجواب: أن الأكوان – أي العوالم – لو حدثت بنفسها، دون محدَث أحدثها؛ لأدى ذلك إلى اجتماع النقيضيْن، واجتماعهما محال باطل باتفاق كل العقلاء من مسلمين أو كافرين.

ومن المتناقضات الذي يستحيل عقلا اجتماعها: **(التساوي والرجحان)** كما لو كان عندك ميزان له كفتان متساويتان، فمحال أن يجتمع تساي كفتيْه، مع رجحان إحداهما على الأخرى في آن واحد، فهذا ضدان لا يجتمعان.

وإذا رجحت إحداهما على الأخرى، فمحال أيضا أن تترجح دون سبب مرجح، من شيء يوضع فيها فيرجحها عن أختها المساوية لها.

وإذا علمت هذه الحقيقة، فاعلم أن الأكوان يجوز عقلا وجودُها، كما يجوز عدمُ وجودِها على حد سواء، فلو فرضنا أنها وُجدت بنفسها دون موجد أوجدها، للزم عقلا أن يكون وجودُها – المساوي لعدمها – راجحا على عدمها بلا مرجح، **وهذا محال**؛ لأن الترجيح لا بد له من مرجح، كما في كفتي الميزان.

فلزم عقلا أن يكون للأكوان سبب مرجح لوجودها على عدمها، وليس هناك من مرجح إلا أن يكون الله هو الذي أوجدها؛ لأنه لا خالق سواه بدليل الوحدانية الذي سيأتي بيانه.

مخطط بياني لهذه القاعدة:









ولو قيل أن الأكوان وُجددت بنفسها دون موجد أوجدها لأدى ذلك إلى المحال من اجتماع التساوي والرجحان فثبت يقينا بالدليل القطعي أن للأكوان خالقا وهو الله الذي لا إله غيره ولا خالق سواه.

الدليل على حدوث العالم

قال الناظم:

..... وَحُـدُوثُ العَالَمِ مِنْ حَدَثِ الأعْرَاضِ مَعْ تَلاَزُمِ

بعد أن ذكر الدليل القاطع على وجود الله، ثم ذكر الدليل الدليل القاطع على أن الأكوان يستحيل أن تحدث بنفسها، أراد أن يدفع – هاهنا – احتمالا آخر، فقد يقول قائل: أن هذا العالَم قد لا يكون حادثا أصلا، بل لعلّه قديمٌ ليس له بداية؟

فأتى الناظم بالدليل العقلي الذي يثبت حدوث العالَم كله، وهو ملازمته للأعراض المختلفة، كالوجود والعدم، والحياة والموت، والحركة والسكون، وطلوع الكواكب وأفولها، والصحة والمرض، والشتاء والصيف، والبرودة والحرارة.. فهذه التغيرات المختلفة هي المرادة بالأعراض، والأعراض حادثة قطعا؛ بدليل التغيرات الطارئة عليها، لأن ما كان قديما يستحيل تغيره وفناؤه بإجماع العقلاء.

وأجرام[1] العالَم كلها لا تنفك عن الأعراض المذكورة، كنزول الأمطار وانحباسها، وطلوع الشمس وغروبها، وتغير القمر من حال إلى حال، ودوران الأرض وحركة الكواكب كلها، كما قال تعالى: **﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾**[2].

ولما كان العالَمُ كلُّه ملازما للأعراض كان حادثا هو الآخر؛ لأن الملازم للحادث لا يكون إلا حادثا، ولأن **(ما قارب الشيء أخذ حكمَه)**.

فهذا معنى قوله: **(وَحُدُوثُ العَالَمِ مِنْ حَدَثِ الأَعْرَاضِ مَعْ تَلاَزُمِ)** أي ودليل حدوث العالَم ملازمتُه للأعراض الحادثة كما ذكرنا.

وقد استدل سيدنا إبراهيم عليه السلام على حدوث الأكوان وعدم ربوبيتها بملازمتها للأعراض، أي للتغيرات الطارئة عليها، ثم تدرّج حتى استدل بذلك على وجود الله؛

---

1 **الجِرْمُ** : مفرد أجرام، وهو جسم كُلِّ شيء، والأجرام الفلكيّة: الأجسام التي في الفلك، **والجِرْمُ** أعم من الجوهر والجسم؛ لأن **الجِرْمَ** هو ما شغلَ قدر ذاتِه من الفراغ، سواء كان مركباً أم لا، والجوهر ما لم يتركب ولم يقبل القسمة عقلاً، والجسم ما تركب من جوهرين...

2 يس 40

قال الله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [1].

---

1 الأنعام 78

2 – دليل القدم:

قال الناظم:

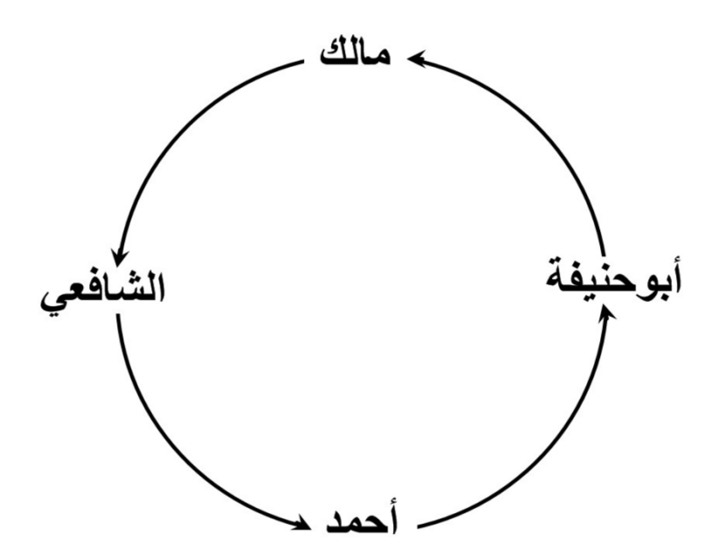
لَوْ لَـمْ يَكُ الْقِـــدَمُ وَصْــفَــهُ لَـزِمَ حُـدُوثُـــهُ دَوْرٌ تَسَلْسُـــلٌ حُتِمْ

بعد أن فرغ من بيان برهان صفة **(الوجود)**، انتقل الى بيان صفة **(القدم)**.

فقال: لو لم يكن الله متصفا بصفة القدم لكان حادثا، ولو كان حادثا لأدى ذلك حتما لازما إلى الدور أو التسلسل، وحذف **(أو)** العاطفة من جملة: **(دَوْرٌ تَسَلْسُـلٌ حُتِمْ)**، ليستقيم له الوزن، فالمراد: **(دور أو تسلسل)**.

والمراد بالدور: أن يكون المخلوق خالقا لخالقه، والخالق مخلوقا لمخلوقه، مثلا: مالك خلق الشافعي، والشافعي خلق أحمد، وأحمد خلق أبا حنيفة، وأبوحنيفة خلق مالكا.

مخطط بياني لحقيقة الدور:



والمراد بالتسلسل: تتابع الأشياء إلى ما لا نهاية، أي؛ خالق يخلق خالقا، وخالق يخلق خالقا.. وكهذا إلى ما لا نهاية في الزمان الغابر.

فالفرق بين الدور والتسلسل، أن الدور له نهاية، والتسلسل ليس له نهاية، وكلاهما باطل عقلا كما سيأتي في كلام الناظم، **فثبت اتصاف مولانا جل جلاله بصفة القدم، فهو الأول بلا ابتداء.**

قال تعالى: **﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** [(1)].

وقال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: **(كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ)** [(2)].

2- دليل البقاء:

قال الناظم: **(لَوْ أمْكنَ الْفَنَاءُ لاَنْتَفَى الْقِدَمُ)** يعني: لو جاز أن يلحق مولانا فناء بعد وجوده، لامتنع واستحال اتصافه بصفة القدم؛ لأن الفناء لا يكون إلا للحادثات، فكل ما ثبت حدوثه جاز عدمه، وما ثبت قِدمه استحال فناؤه؛ **فلزم قطعا اتصافه سبحانه وتعالى بصفة البقاء.**

قال الله تعالى: **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾**[(1)].

---

1 الحديد3

2 أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب: التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء، رقم الحديث: 7418. ورواه في كتاب: (بدء الخلق) بلفظ: **(وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ)**

وقال تعالى: **(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)**[2].

1- دليل عدم المماثلة:

قال الناظم: **(لَوْ مَاثَلَ الْخَلْقَ حُدُوثُهُ انْحَتَمْ)**. يعني: لو انتفت عن مولانا صفة عدم المماثلة، التي تقدم بيانها في قوله: **(وَخُلُفُهُ لِخَلْقِهِ بِلاَ مِثَالْ)** لانحتم أي لوجب ولزم أن يكون حادثا؛ لأن كل متماثِلَيْنِ يثبت لأحدهما ما يثبت للآخر، وقد ثبت في ما تقدم بالدليل القاطع أن المخلوقاتِ كلَّها حادثة، فلو شابه سبحانه وتعالى خلقَه لكان حادثا مثلهم، وحدوثه سبحانه وتعالى محال لِمَا تقدم من الدليل القاطع على ثبوت قِدمه جل جلاله؛ وإذا بطل الحدوث بطلت المماثلة أيضا، فتعين قطعا **(خُلُفُهُ لِخَلْقِهِ بِلاَ مِثَالْ)**.

قال الله تعالى: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)** [3].

وقال الله تعالى: **(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)**.

---

1 الرحمان 27

2 القصص 88

3 الشورى 11

2- دليل الغنى:

قال الناظم: **(لَوْ لَمْ يَجِبْ وَصْفُ الْغِنَى لَهُ افْتَقَرْ)** يعني: لو لم يكن الله سبحانه وتعالى غنيا عن كل شيء، كما تقدم في ذكر الصفات الواجبة له **(وَالْغِنَى الْمُطْلَقُ عَمْ)** لافتقر، أي لاحتاج إلى محل يوجد فيه، أو إلى فاعل يخصصه بالوجود، **وذلك محال؛**

* لأنه لو احتاج إلى المحل لكان صفة وليس ذاتا، والصفة لا تقوم بها الصفات، بل هي التي تقوم بغيرها، وقد ثبت قطعا أن الله متصف بصفات المعاني التي تقدم بيانها، من قدرة وإرادة وعلم وحياة وسمع وبصر وكلام، فتعين قطعا أن يكون سبحانه ذاتا متصفة بالصفات اللائقة بها.

* ولو احتاج إلى فاعل يخصصه بالوجود، أي يخصصه بأن يوجد في مكان معين، أو زمان معين، لكان حادثا، وقد ثبت بالدليل القاطع اتصافه بصفة القِدم كما تقدم، **فتعين قطعا قيامه بنفسه واستغناؤه عن كل شيء.**

قال الله تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)**[1].

وقال تعالى: **(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)**[2].

3-دليل الوحدانية:

قال الناظم: **(لَوْ لَمْ يَكُنْ بِوَاحِدٍ لَمَا قَدَرْ)** يعني: لو لم يكن الله تعالى متصفا بصفة الواحدانية كما تقدم في ذكر الصفات الواجبة له: **(وَوَحْدَةُ الذَّاتِ وَوَصْفٍ وَالْفِعَالْ)** لما قدر على إيجاد هذاالعالَم، ورعايته بهذا النظام المحكم، فلو كان معه شريك لأدى ذلك إلى التنازع والتصادم، كأن يريد أحدهما إيجاد شيء ويريد الآخر عدم إيجاده..

كما قال سبحانه وتعالى: **(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)** [3].

---

1 البقرة 267
2 الشورى 11
3 الأنبياء 22

وقال تعالى: **(وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)**[1].

وإذن: فوجود الأكوان وانسجامها وسيرها على نظام واحد، هو برهان شاهد على وحدانية الله جل ثناؤه.

4- دليل الحياة والإرادة والعلم والقدرة:

قال الناظم:

لَوْ لَمْ يَكُنْ حَيّاً مُرِيداً عَالِماً وَقَادِراً لَمَا رَأَيْتُ عَالِماً

بعد أن فرغ الناظم من من بيان أدلة الصفة النفسية والصفات السلبية، شرع الآن في بيان أدلة صفات المعاني، فقال: لو فرضنا افتراضا باطلا، أن الله غير متصف بصفات المعاني، من حياة وإرادة وعلم وقدرة، لكان عاجزا عن إيجاد شيء من هذه العوالم التي نشاهدها؛ لأنَّ **(فاقد الشيء لا يعطيه)**؛

---

1 المؤمنون 91

* فمن لا يتصف بالحياة لا يمكن أن يمد غيره بها، ولا يمكن أن يتصف بأي صفة أخرى، من إرادة وعلم وقدرة...

* ومن لا يتصف بالإرادة لا يمكن أن يخلق شيئا من الكائنات؛ لأن إيجاد الكائنات متوقف على إرادة إيجادها.

* ومن لا يتصف بالعلم لا يمكن أن يريد شيئا، لاستحالة توجه الإرادة إلى غير معلوم.

* ومن لا يتصف بالقدرة لا يمكن أن يخلق شيئا ولو أراده وعلمه.

فوجود هذه العوالم التي نشاهدها برهان قاطع أن الله حي مريد وهو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير.

فكل فعل أو مصنوع أو مخلوق هو مرآة لصفات فاعله أو صانعه أو خالقه، فلو تأملت في السيارة والأجزاء المركبة منها؛ لعلمت أن صانعها لديه قدرة على تشكيل الحديد في شكل سيارة، وعلى تشكيل الزجاج في شكل ألواح وأغطية للمصابيح، وأن لديه علما وخبرةً بهندسة صناعة السيارة، وأن لديه إرادة في صنع السيارة من الأجزاء التي صُنعت منها..

وكما عرفت صفاتِ صانع السيارة من خلال التأمل فيها، فكذلك – ولله المثل الأعلى – تستطيع أن تعرف بأن الله تعالى متصف بالحياة والإرادة والعلم والقدرة، وغير ذلك من الصفات، من خلال التأمل في مخلوقاته، التي هي آثار لقدرته ومرآة لجميع صفاته، وقد ورد ذكر هذه الصفات في العديد من الآيات القرآنية:

قال الله تعالى: **(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ)**[1]. وقال تعالى: **(إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)**[2].

وقال تعالى: **(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [3]. وقال تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** [4].

---

1 الفرقان 58
2 هود 107
3 البقرة 231
4 البقرة 20

معنى قول الناظم:

وَالتَّالِ فِي السِّتِّ الْقَضايَا بَاطِـلُ قَطْـــعاً مُقَـــدَّمٌ إِذاً مُماثـــِلُ

بعد أن ذكر البراهين الدالة على صفات الله تعالى، ختم ذلك ببيان حُكم تلك البراهين بصفة مجملة.

فقوله : **(وَالتَّالِ)** يعني : التابع، وحذف ياءه لأجل الضرورة الشعرية؛ ليستقيم له الوزن.

وقوله: **(فِي السِّتِّ الْقَضايَا)** يعني : القضايا المنطقية التي سبق ذكرها، من قوله: **(لو لم يك القدم..)** إلى قوله: **(لو لم يكن حيا مريد..)** وكلها قضايا منطقية شرطية، تتألف من قضيتَيْن، تسمى أولاهما: **(مُقَدَّمًا)**، والثانية: **(تاليا)**.

وقوله: **(بَاطِـلُ قَطْعاً)** يعني: أن مدلول تلك القضايا كلِّها باطلٌ حتما، فلا احتمال فيه للصحة إطلاقا.

وقوله: **(مُقَدَّمٌ إِذاً مُماثِلُ)** يعني: أنه ما دام التالي باطلا في تلك القضايا كلها، فالمقدَّم إذًا مماثل له في البطلان؛

لأن التالي لازم للمقدم، و(**إذا بطل اللازم بطل الملزوم**)، أو بتعبير آخر: التالي مبني على المقدم، وما بني على باطل فهو باطل.

وفي ما يلي مخطط بياني لتطبيق هذه القاعدة على كل قضية من القضايا الست المتقدمة:

القضية الأولى:

لَزِمَ حُدُوثُهُ دور تَسَلْسُلٌ حُتِمْ	لَوْ لَمْ يَكُ الْقِدَمُ وَصفَهُ
تالي	مقدَّم
باطل؛ وببطلانه بطل انتفاء القدم	باطل ببطلان الحدوث وما يلزم عنه من دور أو تسلسل؛ وببطلانه ثبتت صفة القدم

القضية الثانية:

لاَنْتَفَى الْقِـدَمُ	لَوْ أمْكنَ الْفَنَاءُ
تالي	مقدَّم
باطل؛ وببطلانه بطل امكان الفناء	باطل ببطلان انتفاء القدم؛ وببطلانه ثبتت صفة البقاء

القضية الثالثة:

لَوْ مَاثَلَ الْخَلْقَ	حُدُوثُهُ انْحَتَمْ
مقدَّم	تالي
باطل ببطلان الحدوث؛ وببطلانه ثبتت صفة عدم المماثلة	باطل؛ وببطلانه بطلت المماثلة

القضية الرابعة:

لَوْ لَمْ يَجِبْ وَصْفُ الْغِنَى لَهُ	افْتَقَرْ
مقدَّم	تالي
باطل ببطلان الافتقار؛ وببطلانه ثبتت صفة الغنى	باطل؛ وببطلانه بطل انتفاء وصف الغنى

القضية الخامسة:

لَمَا قَدَرْ	لَوْ لَمْ يَكُنْ بِوَاحِدٍ
تالي	مقدَّم
باطل؛ وببطلانه بطل انتفاء الوحدانية	باطل ببطلان انتفاء القدرة؛ وببطلانه ثبتت صفة الوحدانية

القضية السادسة:

لَمَا رَأَيْتُ عَالَماً	لَوْ لَمْ يَكُنْ حَيَّاً مُرِيداً عَالِماً وَقَادِرَاً
تالي	مقدَّم
باطل؛ وببطلانه بطل انتفاء الحياة والإرادة والعلم والقدرة	باطل ببطلان عدم رؤية العوالم؛ وببطلانه ثبتت صفات الحياة والإرادة والعلم والقدرة

بهذا العبقرية الفذة استطاع هذا العالم الرباني أن يثبت صفات الذات العلية المقدسة، بالدلائل المنطقية المسلَّمة، والحجج العقلية الدامغة، بكلمات موجزة، وألفاظ واضحة، وعبارات سلسلة، وبديهة عقلية نادرة. وإنه لمن المؤسف أن تجد بعضهم لا يزالون ينتقدون هذا المنهج الاستدلالي، ويصفونه بالضلال والانحراف، باعتباره استدلالا عقليا، والعقائد لا تثبت بالدليل العقلي كما يدعون، وها نحن نرى أن القضايا المنطقية التي ذكرها ابن عاشر، كلها مأخوذة من المنهج القرآني نفسه في إثبات العقائد، ومن نظائرها في القرآن العظيم، قوله تعالى: **(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)**. فإن هذه الآية الكريمة تتضمن في حد ذاتها قاعدة منطقية شرطية، كتلك التي ذكرها ابن عاشر؛

فقوله تعالى: **(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ)** مقدَّم.

وقوله تعالي: **(لَفَسَدَتَا)** تالٍ.

والتالي باطل بدليل مشاهدة عدم فساد الأرض والسماء، وببطلانه بطل المقدم وهو تعدد الآلهة فيهما؛

وبذلك ثبتت صفة الوحدانية لله تعالى بالدليل القاطع، كما قال الناظم: **(لَوْ لَمْ يَكُـنْ بِوَاحِدٍ لَمَا قَدَرْ)**.

5- دليل السمع والبصر والكلام

قال الناظم:

وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ بِالنَّقْلِ مَعْ كَمَالِهِ تُرَامُ

سار الناظم على منهج الجمهور من أهل السنة، في إثبات هذه الصفات الثلاث بالدليل الشرعي لا بالدليل العقلي، فالدليل الشرعي هو المعوّل عليه في إثبات هذه الصفات، فقوله: **(بِالنَّقْلِ مَعْ كَمَالِهِ تُرَامُ)** يعني: أن هذه الصفات تُرام أي تُقصد أدلتها بالنقل المستفاد من القرآن والسنة وإجماع الأمة.

وقوله: **(مَعْ كَمَالِهِ)** أي تُثبت تلك الصفات بالنقل مع ما يحكم به العقل من اتصافه تعالى بالسمع والبصر والكلام؛ لأن اتصافه بها من دلائل كماله، ولو لم يتصف بهذه الصفات، لاتصف بأضدادها، من صمم وعمى وبكم، وهذا نقص والنقص في حقه تعالى محال.

لكن هذا الاستدلال العقلي ضعيف؛ لاحتمال أن يكون عدمُ الاتصاف بتلك الصفات نقصا في حقنا، لا في حقه تعالى.

ولأجل هذا الاحتمال قالوا: أن المعول عليه في إثبات السمع والبصر والكلام إنما هو الدليل الشرعي، مع ما يحكم به العقل من وجوب كماله سبحانه وتعالى، ومن وجوب كماله أن يكون متصفا بهذه الصفات كما تقدم.

ومن أدلة النقل التي أشار إليها الناظم:

قال الله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)** [1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ)** [2].

وقال تعالى: **(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)**[1].

---

1 غافر 20

2 رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الذكر والدعاء، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم الحديث: 44 - (2704)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ)** [2].

---

1 النساء 164

2 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقائق، باب: مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ، رقم الحديث: (6539)

المبحث الخامس: دليل ما يجوز في حق الله تعالى

قال الناظم:

لَوِ اسْتَحَالَ مُمْكِنٌ أَوْ وَجَبَا   قَلْبَ الْحَقَائِقِ لُزُوماً أَوْجَبَا

ذكر في هذا البيت دليل الجائز في حق الله تعالى، الذي تقدم في قوله:

يَجُوزُ فِي حَقِّهِ فِعْلُ الْمُمْكِناتْ   بِأَسْرِهَا وَتَرْكِهَا فِي الْعَدَمَاتْ

وتقدير كلامه:

لو استحال فعلُ ممكنٍ أو وجب عقلا؛ لأوجب ذلك قلب الحقائق لزوما أي حتما.

يعني: لو فرضنا افتراضا باطلا استحالة فعلِ ممكنٍ عقلا، أو فرضنا وجوب فعلِ ممكنٍ عقلا؛ لأدى ذلك إلى قلب الحقائق، أي الى انقلاب القواعد وانعكاسها.

وقاعدة الجائز العقلي: أنه يصح وجوده وعدمه على حد سواء، أو هو ما يتصور العقل ثبوتَه وانتفاءَه، كما تقدم في قوله: **(وجَائِزاً مَا قَبْلَ الأَمْرَيْنِ سِمْ).**

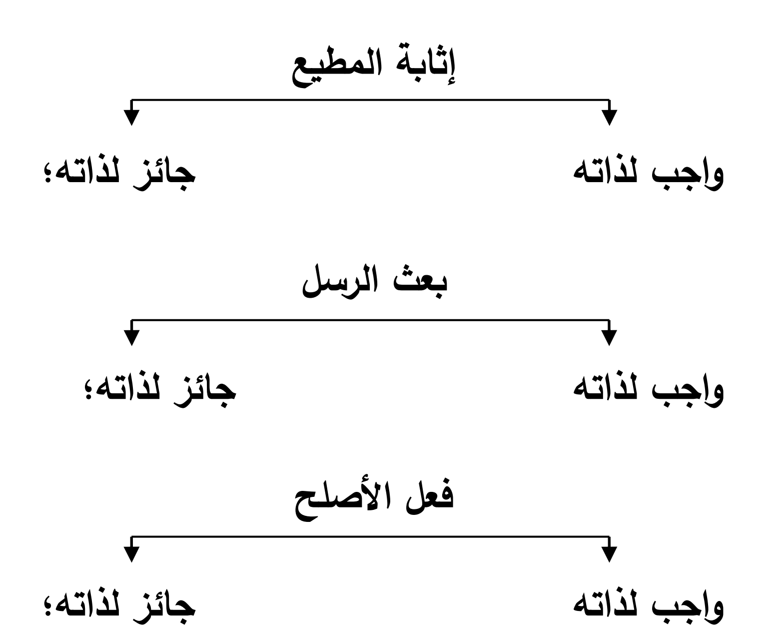
فلو قيل: أن الجائز مستحيل أو واجب لذاته، فهذا لا تقبله العقول؛ لأنه جمع بين متناقضيْن؛ بحيث يصير الشيء جائز الوجود وواجب الوجود، أو يصير جائز العدم ومستحيل العدم في آن واحد، وهذا محال.

ومن أمثلة ذلك: **إثابة المطيع على طاعته، وبعث الرسل، وفعل الأصلح للعباد...**

فهذه كلها ممكنات أو جائزات عقلية، حيث يتصور العقل وجودها وعدمها، ولا يجب على الله فعل شيء منها ولا يستحيل عليه، بل يفعل منها ما يشاء ويترك ما يشاء كما تقدم بيانه مفصلا، فلو قيل – كما قالت المعتزلة – : أن الله يجب عليه **عقلا** أن يثيب المطيع، ويجب عليه أن يبعث الرسل...

ويجب عليه أن يفعل الأصلح للعباد؛ لأدى ذلك حتما إلى قلب الحقائق واجتماع المتناقضات كما ذكرنا آنفا.

نموذج توضيحي:



فالعقل يجيز وجود هذه الأمور كما يجيز عدم وجودها، والقول بوجوبها عقلا قد أفضى إلى اجتماع النقيضين، وهما الجواز والوجوب عقلا في آن واحد، فهذا هو المراد بقلب الحقائق، وهو محال وباطل، إذا لا تتصور العقول وجوده أبدا؛ وإذا بطل قلب الحقائق بطل معه القول بوجوب فعل الجائز أو استحالة فعله، فنطبق عليه نفس القاعدة التي

طبقناها على القضايا المنطقية المتقدمة، وذلك على النحو الآتي:

لَوِ اسْتَحَالَ مُمْكِنٌ أَوْ وَجَبَا	قَلْبَ الْحَقَائِقِ لُزُوماً أَوْجَبَا
مقدَّم	**تالي**
باطل ببطلان انقلاب الحقائق؛ وببطلانه ثبتت قطعا أن الله يجوز في حقه فعل الجائزات أو تركها في العدمات ولا يجب على شيء من ذلك ولا يستحيل	**باطل وببطلانه بطل وجوب فعل الجائز أو ستحالة فعله**

ولو كان واجبا على الله عقلا فعلُ الأصلح للعباد – كما قالت المعتزلة – لما رأينا في الواقع فسادا قط؛ لأن الواجب العقلي هو ما لا يقبل النفي بحال، وإنما يقبل الثبوت فقط.

والحاصل: أن الله تعالى لا يجب عليه عقلا أن يرزقنا، ولا ان يدخلنا الجنة، ولا أن يثيبنا على طاعاتنا، ولا أن ينصرنا على الكافرين...

أما قوله تعالى: **(وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)**[1]. فذلك تفضل منه ورحمة، وإحسان ومَنَّة، وليس إيجابا وإلزاما، وقد رأينا في مواطن كثيرة عدم انتصار المؤمنين، كما في غزوة أحد وغيرها إلى يوم الناس هذا، ولو كان نصرُ المؤمنين واجبا على الله وجوبا عقليا؛ لما رأينا في الواقع مؤمنا منهزما، لأن الواجب العقلي لا يقبل العدم أبدا. وقس على ذلك ما أشبهه، كقوله صلى الله عليه وسلم: **(ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: المُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ)**[2].

وقد فصلنا القول في التفرقة بين الواجب العقلي، وبين الواجب العرضي الذي أخبر الشرع بوقوعه فيما تقدم، فانظره في موضعه.

---

1 الروم 47

2 رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاهد في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله إياهم ن رقم الحديث: 1655

المبحث السادس: الصفات الواجبة للرسل

قال الناظم:

يَجِبُ لِلرُّسْلِ الْكِرامِ الصِّدْقُ   أَمانَةٌ تَبْلِيغُهُمْ يَحِقُّ

لما فرغ الناظم من بيان الإلاهيات شرع في بيان النبوات، وبدأ بذكر الصفات الواجبة للرسل عليهم السلام، والرسل جمع رسول، وهو في اللغة مأخوذ من الإرسال وقيل من الرسالة، وفي الاصطلاح: **(إنسان ذكر حر بالغ عاقل اصطفاه الله لتبليغ رسالته للناس).**

ومن خلال هذا التعريف يتبين لنا أن الرسول لا يكون ملكا ولا جانا ولا عبدا ولا أنثى، واختُلف في نبوة مريم عليها السلام، فالجمهور على أنها ليست بنبية، وذهب أبو الحسن الأشعري وابن وهب والقرطبي إلى صحة نبوتها، غير أنها ليست مرسلة اتفاقا.

وبين الرسول والنبي عموم وخصوص، فكل رسولٍ نبيٌّ وليس كلُّ نبيٍّ رسولا، فيجتمعان في أن الله أوحى إلى كل منهما،

ويفترقان في أن الرسول كُلِّفَ بتبليغ ما أوحي إليه، بخلاف النبي فلم يُكلف بذلك.

وقد ذكر الناظم أن الرسل تجب لهم ثلاث صفات، وهي: **الصدق والأمانة والتبليغ**، وهناك من أضاف صفة رابعة وهي **الفطانة**.

وسنشرح معاني هذه الصفات باختصار، أما أدلتها الشرعية والعقلية فسيأتي بيانها في موضعها.

1- **الصدق:**

يعني في كل ما يبلغونه عن الله تعالى، فلا يقع منهم كذب في التبليغ أبدا، ولا في غيره من أحاديثهم العادية، لا عمدا ولا سهوا.

2- **الأمانة:**

والمراد بها حفظ جميع جوارحهم الظاهرة والباطنة من التلبس بمنهي عنه، محرما كان أو مكروها، فهم محفوظون من ارتكاب أي مخالفة شرعية، كبيرة كانت أو صغيرة، قبل النبوة

أو بعدها، في حال صغرهم أو في حال كبرهم، وسُمي المتصف بذلك أمينا؛ لأنه أمن من الوقوع في المخالفات الشرعية.

3- **التبليغ:**

والمراد به أداؤهم لجميع ما أُمروا بتبليغه للخلق، فلم يتركوا من ذلك شيئا إلا بلغوه، صغيرا كان أو كبيرا...

وقوله: **(... يَحِقُّ)** أي يجب عقلا ونقلا اتصافهم بهذه الصفات الثلاث.

4- **الفطانة:**

لم يذكر الناظم هذه الصفة؛ لأنه سار على منهج الإمام السنوسي الذي لم يذكرها هو الآخر، وجمهور الأشاعرة يعدونها من الصفات الواجبة للرسل دون الأنبياء.

ومعناها: **(الذكاء وحدة العقل واليقظة والنباهة)** فمحال أن يكون الرسول غبيا أو أبله.

البحث السابع: ما يستحيل في حق الرسل

قال الناظم:

مُحالٌ الْكَذِبُ وَالمَنْهِيُّ   كَعَدَمِ التَّبْلِيغِ يا ذَكِيُّ

يعني يستحيل في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام أضداد الصفات الواجبة المتقدمة.

1- الكذب:

فيستحيل عقلا أن يقع منهم كذب في التبليغ وغيره، وقد قال الله تعالى في حق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: **(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)**[1].

وأما ما ورد عن سيدنا إبراهيم عليه السلام أنه لم يكذب إلا ثلاث كَذَبَاتٍ:

الأولى : **(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ)**

---

1 الحاقة 44

والثانية : **(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)**

والثالثة: حينما سأله الملك الجبار عن زوجته سارة قال: هي أختي[1].

فهذا ليس كذبا، وإنما هو من باب التعريض، وهو ضد التصريح، ومعناه: التكلم بشيء وإرادة شيء آخر، وفي الأثر: **(إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةٌ عَنِ الْكَذِبِ)**[2].
ومن هذا القبيل مزاح سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فقد كان يمزح ولكنه لا يقول إلا حقا، كقوله للعجوز التي سألته الدعاء لها بأن تدخل الجنة، فقال لها: **(انّ الجنة لا تدخلها عجوز)** [3].

---

1 أصل ذلك حديث رواه مسلم في صحيحه، باب: فضل إبراهيم، رقم الحديث: 154 - (2371)
2 رواه أبو داود في سننه، باب: فضيلة الصدق والذم الكذب، رقم الحديث: 289
3 رواه الترمذي في الشمائل المحمدية، باب: ما جاء في صفة مزاح رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم 230

وهو يقصد بذلك أنها لا تدخلها وهي عجوزٌ كبيرة، بل تدخلها شابةً صغيرة؛ قال صلى الله عليه وآله وسلم: **(إِنِّـي لَأَمْزَحُ، وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا)**[1].

2- المنهي:

فيستحيل في حقهم عقلا ارتكاب المنهيات، من محرمات أو مكروهات، وهو المراد بقوله: **(وَالمَنْهِىِّ)**. ويُعبَّر عنه بالخيانة.

3- عدم التبليغ:

فيستحيل في حقهم عقلا أن يكتموا ما أُمروا بتبليغه للناس، وهو معنى قوله: **(كَعَدَمِ التَّبْلِيغِ)**. فالكاف للتشبيه أي يستحيل في حقهم الكذب وارتكاب المنهيات كاستحالة عدم التبليغ.

---

1 رواه الطبراني في الوسط، باب: الأف [من اسمه أحمد] رقم : 995

المبحث الثامن: ما يجوز في حق الرسل

قال الناظم:

يَجُوزُ فِي حَقِّهِمْ كُلُّ عَرَضْ لَيْسَ مُؤَدِّياً لِنَقْصٍ كالْمَرَضْ

يعني يجوز في حقهم كل وصف بشري، لا يؤدي إلى نقص في ذواتهم العلية وصفاتهم الكاملة، كالجنون والجرب، والجذام والبرص، والعمى والعته، وكل ما من شأنه أن يعيب أجسامهم الطاهرة... وهذا معنى قوله : **(لَيْسَ مُؤَدِّياً لِنَقْصٍ)**. يعني إذا كان العرض مؤديا لنقص لم يجز بل يستحيل في حقهم.

وإنما يجوز في حقهم العرض الذي لا يؤدي إلى النقص، كالمرض والتعب، والفقر والجوع، والأكل والشرب، والنوم والجماع، والنسيان في غير ما أُمروا بتبليغه، وفي الحديث الشريف: **(إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي)**[1].

وأما قول يوشع عليه السلام: **(وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ)**[2].

---

1 رواه مسلم في صحيحه، باب: السهو في الصلاة.. رقم الحديث: 89-(572)

2 الكهف 63

فهو تواضع منه، وقد كان ذلك لحكمة بدليل قول موسى له: **(قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا)**[1].

كما يجوز في حقهم السهو في الأفعال البلاغية لحكمة، كالسهو في بعض العبادات لبيان أحكامها التشريعية، ومن ذلك سهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة، حيث سلم من ركعتين في الصلاة الرباعية، ومرة قام من ركعتين دون أن يجلس للتشهد الوسطى، ومرة قام إلى ركعة خامسة، ومرة ترك السورة بعد الفاتحة، وقد جمعها بعضهم في في هذين البيتين:

سها النبي في الصلاة فسلَّما   من ركعتين وقيامٍ منها

ثــم إلى خامســـة قــد وقفا   وإنه لســـورة قد حذفا

أما السهو في الأخبار البلاغية فيستحيل في حقهم، كأن يخبروا بشيء مما أمروا بتبليغه على خلاف الواقع سهوا.

قال سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص:

---

1 الكهف 63

(كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ، يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابَةِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ، فَقَالَ: اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ)[1].

---

1 رواه أبو داود في سننه، باب: في كتاب العلم، رقم الحديث:3646

المبحث التاسع: أدلة صفات للرسل

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أدلة ما يجب للرسل من الصفات

قال الناظم:

لَوْ لَمْ يَكُونُـوا صَادِقِيـنَ لَلَزِمْ   أنْ يَكْذِبَ الإِلَهُ فِي تَصْدِيقِهِمْ

إذْ مُعْجِـزَاتُهُـمْ كَقَـوْلِـهِ وَبَـرْ   صَدَقَ هَذَا الْعَبْدُ فِي كُلِّ خَبَرْ

لَوِ انْتَفَى التَّبْلِيغُ أَو خَانُوا حُتِمْ   أَنْ يُقْلَبَ الْمَنْهِيُّ طَاعَـةً لَهُمْ

بعد أن فرغ من بيان ما يجب للرسل، وما يستحيل في حقهم وما يجوز، شرع الآن في بيان أدلة ذلك.

1- دليل صدق الرسل:

قال الناظم:

لَوْ لَمْ يَكُونُـوا صَادِقِيـنَ لَلَزِمْ   أنْ يَكْذِبَ الإِلَهُ فِي تَصْدِيقِهِمْ

إذْ مُعْجِـزَاتُهُـمْ كَقَـوْلِـهِ وَبَـرْ   صَدَقَ هَذَا الْعَبْدُ فِي كُلِّ خَبَرْ

يعني لو فرضنا أن الرسل لم يجب عقلا أن يكونوا صادقين في كل ما أخبروا به عن الله؛

للزم من ذلك أن يكذب الله سبحانه وتعالى في تصديقهم، أي في تأييدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم[1]؛ لأن ما أيدهم الله به من المعجزات هو بمنزلة قوله تعالى: **(صدق هذا العبد وبرَّ**[2] **في كل خبر أخبر به عن الله)**، والكذب في حقه سبحانه وتعالى محال، ومن ثم كانت معجزات الرسل دلائل قطعية على وجوب اتصافهم بالصدق واستحالة اتصافهم بنقيضه.

وزيادة في إيضاح معنى هذا الدليل نطبق عليه نفس القاعدة التي طبقناها على القضايا المنطقية السابقة، وذلك على النحو الآتي

---

1 **المعجزة:** هي الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، السالم من المعارضة، اللذي يظهره الله على يد أحد أنبيائه بعد نبوته، كانشقاق القمر لسيدنا محمد وتسبيح الحجر في يديه الطاهرتين، وكإحياء الموتى على يدي سيدنا عيسى، وكعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم، عليهم صلاة الله وسلامه جميعا.

2 **برَّ:** بتشديد الراء أي صدق، ووقف عليه الناظم بالتخفيف للوزن، وفي كلام الناظم تقيم وتأخير، وتقديره كما بيناه.

لَوْ لَمْ يَكُونُوا صَادِقِيـنَ	**لَلَزِمْ أَنْ يَكْذِبَ الإِلَهُ فِي تَصْدِيقِهِمْ**
مقدَّم	**تالي**
باطل ببطلان كذب الله سبحانه في تصديق الرسل؛ وببطلانه وجب اتصافهم بالصدق قطعا	**باطل قطعا**

ولقد شهد الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق وكفى بذلك شهادة، فقال تعالى:

(وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [1].

والذي جاء بالصدق هو محمد صلى الله عليه وسلم، والذي صدق به هم المؤمنون عامة، وقيل: أبوبكر خاصة.

وقد اشتهر عليه الصلاة والسلام بين قومه بالصدق، حتى لقبوه بالصادق الأمين.

---

1 الزمر 33

وقال تعالى: **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)**[1].

وقال تعالى: **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا)**[2].

وقال تعالى: **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)**[3].

وقال تعالى: **(لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)**[4].

والبينات: هي بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقهم وصدق رسالتهم.

---

1 مريم41

2 مريم54

3 مريم56

4 الحديد 25

2-3- دليل التبليغ والأمانة:

قال الناظم:

لَوِ انْتَفَى التَّبْلِيغُ أَو خَانُوا حُتِمْ   أَنْ يُقْلَبَ الْمَنْهِيُّ طَاعَـةً لَهُمْ

يعني لو انتفى التبليغ عن الرسل، فكتموا ما أُمروا بتبليغه، أو انتفت عنهم الأمانة، فخانوا بفعل المحرمات والمكروهات؛ لصار واجبا علينا شرعا أن نطيعهم في ذلك، أي نقتدي بهم في الكتمان والخيانة؛ لأن الله أمرنا باتباعهم والاقتداء بهم.

ولو كتموا أو خانوا لكان ذلك بمنزلة أمر الله لنا بالكتمان والخيانة، وهذا محال لأن الله لا يأمر بمحرم أو مكروه، ومن ثم استحال عقلا اتصافهم بالكتمان أو الخيانة، ووجب اتصافهم بصفتي التبليغ والأمانة.

وقد انعقد الإجماع على أن الله قد عصم رسله عن جميع مظاهر الانحراف، وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الرسالة التي هيأهم الله لحملها.

وقال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في ما يرويه عن نفسه: **(مَا هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ مِمَّا يَهُمُّ بِهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللَّهُ مِنْهُمَا... فَوَاللَّه مَا هَمَمْتُ**

بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِنُبُوَّتِهِ) [1].

شهادة القرآن للرسل بالتبليغ

وقد شهد الله لرسله بتبليغ رسالته في العديد من الآيات، منها:

قال تبارك وتعالى: **(فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)**[2].

وقال لنبيه محمد: **(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ)**[3]. وخاطبه بقوله: **(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)**[4].

وقال في حق نبيه صالح: **(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)**[5].

---

1 رواه البزار في مسنده رقم 640 وابن حبان في صحيحه رقم 6272 واللفظ له

2 النحل 35

3 النحل 35

4 المائدة 67

5 الأعراف 79

وقال في حق نبيه شعيب: **(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ)**[1].

وقال في حق نبيه هود: **(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ)**[2].

شهادة القرآن للرسل بالأمانة

كما شهد سبحانه وتعالى لرسله بالأمانة في آيات كثيرة، منها:

قال تبارك وتعالى: **(اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ)**[3].

وقال تعالى : **(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)** [4].

والله لا يصطفي إلا الأمناء من خلقه.

وقال في نبيه محمد: **(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)**[1].

---

1 الأعراف 93

2 هود 57

3 الحج 75

4 آل عمران 33

وقال عن نبيه موسى: **(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)**[2].

وقال عن نبيه هود: **((ذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)**[3].

وقال عن نبيه نوح: **(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)**[4].

---

1 القلم 4

2 القصص 26

3 القصص 26

4 الشعراء 125

المطلب الثاني: دليل ما يجوز في حق الرسل

قال الناظم:

جوَّازُ الَاعْرَاضِ عَلِيْهِمْ حُجَّتُهْ وُقُوعُهَا بِهِمْ تَسَلِّ حِكْمَتُهْ

يعني أن دليل جواز الأعراض على الرسل، هو مشاهدة تلك الأعراض بهم أي عليهم، حيث شاهدها عيانا من عايشهم وعاصرهم من أهل زمانهم، ومشاهد الواقع من أقوى الأدلة، بل هي عين اليقين.

وقد نُقل إلينا بالتواتر وقوع تلك الأعراض، والتواتر يفيد العلم الضروري، أي العلم اليقيني القطعي، الذي يضطر الإنسان إلى قبوله ولا يمكنه دفعه.

كما ورد ذكر تلك الأعارض في القرآن العظيم؛

حيث قال تعالى في شأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: **(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ)**[1].

وقال عن المسيح وأمه : **(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ)**[2].

---

1 الفرقان 7

2 المائدة 75

وقال عن أيوب: **(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)**[1].

وقد مرض نبينا محمد صلى عليه وسلم، واشتدت عليه الحمى حين وفاته، وكُسرت رباعيته في غزوة أحد، وشد الحجارة على بطنه من شدة الجوع، وأوذي في الله أَذًى كَثِيرًا...

وفي الحديث: **(إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ)**[2].

ثم بين الناظم الحكمة من وقوع تلك الأعراض على الرسل الكرام، فقال: **(تَسَلٍّ حِكْمَتُهْ)**

يعني أن في ما وقع للرسل الكرام من معاناة تسليةً للمؤمنين؛ ليعلموا حقارة هذه الدنيا وهوانها على الله، فلو كان لها أدنى قيمة عند الله لما ترك أحِبَّاءَه وأصفياءه يعانون فيها المتاعب والآلام ولأحزان... وإذا علم المؤمنون ذلك تصبَّروا عن الدنيا، وأعرضوا عنها بقلوبهم، ولم يقيموا لها وزنا..

---

1 المائدة 75

2 رواه النسائي في الكبرى، كتاب الطب/ أي الناس أشد بلا/ رقم الحديث:7440

كما قال المصطفى عليه الصلاة والسلام: **(كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)**[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: **(لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ)**[2].

---

1 رواه البخاري في كتاب الرقائق، باب: كن في الدنيا كأنك غريب.. رقم الحديث:6416

2 رواه الترمذي في سننه ، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل، رقم الحديث:2320

المبحث العاشر:
اشتمال الشهادتين على جميع عقائد الإيمان

قال الناظم:

وَقَـــوْلُ لاَ إِلَهَ إلاّ اللهُ مُحَمَّـــدٌ أَرْسَلَـــــــــهُ الْإِلَـهُ
يَجْمَعُ كُلَّ هَذِهِ الْمَعَانِي كـانَتْ لِذَا عَلاَمَـــةَ الإِيمَـانِ
وَهِيَ أَفْضَلُ وُجُوهِ الذِّكْرِ فَاشْغَلْ بِهَا الْعُمْرَ تَفُزْ بِالذُّخْرِ

بعد أن بين عقائد الإيمان مفصلة، ذكرها هاهنا مجملة، باندراجها تحت كلمة: **(لا إله إلا الله محمد رسول الله)**؛

المطلب الأول: التعريف بالشهادتين

1- معنى لا إله إلا الله:

(لا معبود في الواقع بحق إلا اللهُ، المستغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه).

2- معنى محمد رسول الله:

(أن سيدَنا محمدَ بْن عبد الله صلى الله عليه وآله سلم مرسلٌ من عند ربه بالحق إلى الناس كافة).

المطلب االثاني: شرح تعريف الشهادتين

ومن خلال هذا التعريف للشهادتين يتبين لنا ما يلي:

1- أن كلمة: **(لا إله إلا الله)** نفت الألهية عن غيره تعالى، وأثبتتها له وحده، فهو وحده المستحق للعبادة بحق، ويلزم من ذلك أن يكون مستغنيا عن كل ما سواه، وأن يكون كل ما سواه مفتقرا إليه، وإذا كان كذلك لزم أن يكون متصفا بكل ما تقدم من الصفات الواجبة له، ومنزها عن اضدادها من الصفات المستحيلة في حقه.

2- أن كلمة : **(محمد رسول الله)** تعني الإقرار له بالرسالة، ويلزم من ذلك تصديقه صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به، كما يقتضي ذلك اتصافه بما يتفق مع مقتضيات الرسالة التي هيأه الله لحملها، من صدق وأمانة وتبليغ وفطانة، وإذا ثبت ذلك له صلى الله عليه وسلم ثبت لجميع إخوانه المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

فلهذا كانت كلمة **(لا إله إلا الله محمد رسول الله)** جامعة لكل المعاني المتقدمة في عقائد الإيمان، كما قال الناظم:

وَقَــــوْلُ لاَ إِلَهَ إلاّ اللهُ   مُحَمَّــدٌ أَرْسَلَــهُ الْإِلَـهُ

يَجْمَعُ كُلَّ هَذِهِ الْمَعَانِي   ....

المطلب الثالث: وجوب فهم معنى الشهادتين

واعلم أنه يجب على كل مكلف أن يفهم معنى **(لا إله إلا الله محمد رسول الله)**؛ إجمالا لا تفصيلا، أي لا يجب عليه أن يعرف ما اندرج تحتها على التفصيل المذكور، فيكفيه أن يفهم أن كلمة **(لا إله إلا الله)** نفت الألهية عن غير الله، وأثبتتها لله وحده، فهو وحده المعبود بحق ولا معبود سواه.

وأن يفهم أن كلمة **(محمد رسول الله)** معناها الإقرار بأنه صلى الله عليه وسلم مرسل من عند ربه بالحق.

المطلب الرابع: دليل وجوب فهم معنى الشهادتين

وقد دل على اشتراط فهم الشهادتين: قوله تعالى: **(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)**[1]. وقوله تعالى: **(وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)**[2]. وقوله صلى الله عليه وسلم: **(أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي، وَبِمَا جِئْتُ بِهِ)**[3]. **ووجه الاستدلال:** أن العلم في الآتين الكريمتين والشهادة في الحديث النبوي الشريف يقتضيان الفهم.

---

1 محمد 19

2 ابراهيم 52

3 رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله.. رقم الحديث: 34 - (21)

المطلب الخامس: معنى قوله : (كـانَتْ لِذَا عَلاَمَةَ الإِيمَانِ)

يعني لجمعها لكل ما تقدم من عقائد الإيمان، كانت علامة ودليلا على الإيمان، فبالنطق بها يتحقق إيمان العبد ويتم دخوله في الإسلام؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: **(أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** [1].

ويفرق العلماء في حكم النطق بالشهادتين بين المؤمن والكافر:

فأما المؤمن أي من وُلد ونشأ في عائلة مؤمنة، فهو على أصل عائلته، والنطق بالشهادتين في حقه واجب مرة في العمر، وجوب الفروع لا وجوب الأصول، فإن ترك النطق بالشهادتين بعد تكليفه، فهو آثم وإيمانه صحيح بالأصالة، ما دام مصدقا بقلبه بالشهادتين، ويجب عليه استحضار النية عند أدائه للشهادتين على المشهور من مذهبنا، فإن نطق بهما دون استحضار للنية فهو آثم أيضا، وإيمانه صحيح من باب أولى.

وأما الكافر أي من وُلد في في عائلة غير مؤمنة وأراد أن يسلم، ففيه التفصيل الآتي:

---

1 رواه النسائي في الكبرى، كتاب: الزكاة، –قتال مانعي الزكاة– رقم الحديث:2235

(أ) فإن كان عاجزا عن النطق بالشهادتين كالأبكم ، فإيمانه صحيح بإجماع العلماء، إذا كان مصدقا بقلبه بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لقوله تعالى: **(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)**[1].

وعلى هذا حُمل قوله عليه الصلاة والسلام: **(مَن ماتَ وهو يَعْلَمُ أنَّه لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ)**[2].

(ب) أما من كان قادرا على النطق بالشهادتين ولم ينطق بهما، فله حالتان:

أولاهما: إن ترك النطق بهما إيباء واستكبارا فهو كافر بإجماع العلماء، ولا يفيده تصديقه القلبي في شيء؛

للحديث المتقدم: (..**حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**). وعلى هذا حُمل قوله عليه الصلاة والسلام: **(مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)**[3].

والثانية: إن ترك النطق بهما لغفلة، ففيه خلاف:

---

1 البقرة 286

2 رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا، رقم الحديث: 136

3رواه أبو داود في سننه، كتاب: الجنائز، باب: التلقين، رقم الحديث: 3116

فذهب القاضي عياض إلى كفره، وذهب جمهور الأشاعرة والشيخ أبو المنصور الماتريدي إلى أنه مؤمن، غير أنهم قالوا: لا نجري عليه أحكام الإسلام الظاهرة، من توارث وتناكح وصلاة عليه ودفن في مقابر المسلمين... حتى ينطق بهما.

المطلب السادس: معنى قوله: (وَهِيَ أَفْضَلُ وُجُوهِ الذِّكْرِ)

يعني أن لا إله إلا الله هي أفضل وأشرف أنواع الذكر؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: **(أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)**[1].

وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها: قوله عليه الصلاة والسلام: **(لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحٌ، وَمِفْتَاحُ السَّمَاوَاتِ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** [2].

وهي الكلمة الطيبة في قوله تعالى: **(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ)**[3].

---

1 رواه ابن ماجه في سننه، كتاب : الأدب، باب: فضل الحامدين، رقم الحديث: 3800

2 رواه الطبراني في الكبير، باب: الميم – معاوية بن قرة– رقم الحديث: 497

3 إبراهيم 24

وهي القول الثابت في قوله عز وجل: **(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)**[1].

وتسمى كلمة الإخلاص، وكلمة الإسلام، وكلمة التوحيد...

المطلب السابع: معنى قوله:(فَاشْغَلْ بِهَا الْعُمْرَ تَفُزْ بِالذُّخْرِ)

يعني عَمِّرْ بذكرها مدة حياتك، واجعلها شغلك الشاغل في سائر أوقاتك، تفزْ بالذخر أي بالثواب الأعظم، الذي يُدَّخر لك عند ربك.

1 إبراهيم 27

المطلب الثامن: إعراب لا إله إلا الله

الكلمة	إعرابها
لا	نافية للجنس عاملة عمل (إنَّ) مفيدة للنفي العام عن كل أفراد الجنس.
إلـهَ	اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب، وخبرها محذوف، تقديره: موجد وقيل معبود.
إلا	حرف استثناء، مبني لا محل له من الإعراب، دالٌّ على الحصر، مفيد لنفي ما قبله وإثبات ما بعده، والنفي بعد (إلا) من أقوى صيغ الإثبات.
اللهُ	اسم الجلالة مرفوع على أنه بدل من الضمير المستتر في خبر (لا) والتقدير: (لا إلهَ – موجودٌ هو – إلا اللهُ) والإله هو المعبود بالحق؛ وعليه يكون المعنى : لا معبودَ بالحق موجودٌ إلا الله

المبحث الحادي عشر: حقيقة الإسلام وأركانُه

المطلب الأول: حقيقة الإسلام

قال الناظم:

فَصْلٌ وَطَاعَةُ الْجَوارِحِ الْجَمِيعْ   قَوْلاً وَفِعْلاً هُــوَ الاِسْـــلامُ الرَّفِيعْ

أولا: تعريف الإسلام

والاسلام في اللغة: هو الانقياد مطلقا، يقال: أسلم لكذا؛ أي انقاد له وأذعن واستسلم، ومنه قوله تبارك تعالى عن إبراهيم وإسماعيل: **(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)**[1] أي انقادا لأمر الله واستسلما له.

وفي الاصطلاح: هو انقياد الجوارح كلها لله تعالى، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. ومنه قوله تعالى: **(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)**[2].

---

1 الصافات 103

2 البقرة 112

ثانيا: معنى الطاعة

والطاعة في اللغة: هي مطلق الانقياد.

وفي الاصطلاح: هي الامتثال والانقياد ظاهرا وباطنا، سواء كان ذلك بالفعل؛ كالقيام بالواجبات والمستحبات، أو كان بالترك؛ كاجتناب المحرمات والمكروهات.

ثالثا: معنى الجوارح

الجوارح: جمع جارحة، والمراد بها الكواسب التي يكتسب بها العبد أفعاله، وسُميت هذه الكواسب جوارح؛ لأن العبد يجترح بها الحسنات والسيئات، أي يكتسبها ؛ ومنه قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)(1).

وعددها سبعة وهي: اللسان، والسمع والبصر، واليدان والرجلان، والبطن والفرج، بعدد أبواب جهنم؛ لأن العبد إنما يردها بما كسبت جوارحه؛

---

1 الجاثية 21

قال الحق تبارك وتعالى: **(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**[1].

وقال تعالى: **(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)**[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: **(وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)**[3].

والجوارح التي تقدم ذكرها كلُّها تتلقى الأوامر من القلب، فهو ملكها والموجِّه لها والمسؤول عن جميع حركاتها، وعلى صلاحه يتوقف صلاحها؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: **(أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ)**[4].

---

1 النور 24

2 الإسراء 36

3 رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في حرمة الصلاة ، رقم الحديث:2616

4 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: من استبرأ لدينه، رقم الحديث:52

رابعا: المعنى العام لقول الناظم

من خلال ما تقدم نخلص إلى بيان المعنى الإجمالي لقول الناظم:

(وَطَاعَةُ الْجَوارِحِ الْجَمِيعْ قَوْلاً وَفِعْلاً هُوَ الاِسْلامُ الرَّفِيعْ)

يعني: أن الإسلام الرفيع أي الكامل، إنما يتحقق بطاعة جميع الجوارح المذكورة، أي انقيادها لفعل المأمورات واجتناب المنهيات، قولا وفعلا:

فالطاعة بالقول: كالنطق بالشهادتين، والتكبير والسلام والقراءة في الصلاة... **والطاعة بالفعل:** كالصلاة والزكاة، والصيام والحج...

فإن كانت الطاعة بجميع الجوارح المذكورة، فقد تحقق الإسلام الرفيع، أي الكامل، وإن كانت الطاعة ببعض الجوارح دون بعض، لم يكن الإسلام كاملا، بل هو إسلام ناقص.

المطلب الثاني: قواعد الإسلام

قال الناظم:

قَوَاعِدُ الِاسْلاَمِ خَمْسٌ وَاجِبَاتْ   وَهْـيَ الشَّهَادَتَانِ شَـــرْطُ البَاقِيَاتْ

فبعد أن بين معنى الإسلام، انتقل إلى بيان قواعده، والقواعد جمع قاعدة، وهي: الأساس الذي ينبني عليه غيره، وإذن فقواعد الإسلام هي الأسس والأصول التي ينبني عليها، وهي خمس قواعد كما ذكر الناظم؛ ودليل انحصارها في هذا العدد قوله صلى الله عليه وسلم: **(بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ)**[1].

أولا : معنى قوله : (خَمْسٌ وَاجِبَاتْ)

يعني مفروضات فرضَ عين على كل مكلف، فأما الشهادتان والصلاة والصيام فهن مفروضات على الأحرار والعبيد إجماعا، وأما الزكاة والحج فهما مفروضان على الأحرار دون العبيد عند جمهور الفقهاء خلافا لقوم.

---

1 رواه الشيخان البخاري ومسلم

ثانيا: معنى قوله : (الشَّهَادَتَانِ شَـرْطُ البَاقِيَاتْ).

يعني أن الشهادتين شرط لصحة بقية القواعد الأربع، فلا تصح صلاة ولا صيام ولا زكاة ولا حج، إلا بعد الإيمان الجازم بمعنى الشهادتين، والنطق بهما على التفصيل المتقدم، عند شرح قول الناظم: **(كـانَتْ لِذَا عَـلاَمَةَ الإِيمَانِ).**

واعلم أن من حافظ على هذه القواعد الخمس فقد أفلح ودخل الجنة إن شاء الله ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم – عن من قال لا أزيد عليهن ولا أنقص– : **(أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ أَوْ دَخَلَ الجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ)**[1].

ثالثا: معنى قوله : (ثُمَّ الصَّلاةُ والزَّكَاةُ فِي الْقِطَاعْ).

ذكر هاهنا بقية قواعد الإسلام، التي سيأتي بيان أحكامها مفصلة في كتاب الفقه.

وقوله: (والزَّكَاةُ فِي الْقِطَاعْ) القطاع: جمع قطيع، وهو الجزء من كل شيء، وأراد الناظم به هاهنا جميع قطاع الأموال،

---

1 رواه البخاري في صحيحيه، كتاب: الصوم، باب: وجوب صوم رمضان، رقم الحديث: 1891

من ماشية وزرع ونقود وذهب وفضة، وهو قيد احترز به عن زكاة الأبدان؛ لإخراجها من قواعد الإسلام.

رابعا: معنى قوله:(الصَّوْمُ وَالْحَجُّ عَلَى مَنِ اسْتَطَاعْ)

الاستطاعة هي القدرة على الفعل، فلا صوم ولا حج على من لم يقدر عليهما؛
لقوله تعالى : **(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)**[1].
وقوله تعالى: **(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)**[2].
وقوله تعالى: **(فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ)**[3].

---

1 البقرة 286

2 آل عمران 57

3 البقرة 184

المبحث الثاني عشر: حقيقة الإيمان وأركانه

المطلب الأول: حقيقة الإيمان

قال الناظم:

الاِيمَانُ جَزْمٌ بِالإِلَـهِ وَالْكُتُبْ   والرُّسْلِ وَالأَمْلَاكِ مَعْ بَعْثٍ قَرُبْ

وقَدَرٍ كَـذَا صِـرَاطُ مِيزَانْ   حَـوْضُ النَّبــيِّ جَـنَّـةٌ وَنِيرَانْ

بعد أن فرغ من بيان حقيقة الإسلام وأركانه ، شرع في بيان حقيقة الإيمان وأركانه.

أولا: تعريف الإيمان.

والإيمان لغة: هو التصديق مطلقا، ومنه قوله تعالى: **(وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)**[1]. أي وما أنت بمصدق لنا.

---

1 يوسف 17

وفي الاصطلاح: هو اعتقاد بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح بمقتضى ما اعتقده بقلبه وأقر به بلسانه.

وقول الناظم: **(الاِيمَانُ جَزْمٌ..)** أي اعتقاد وتصديق جازم لا تردد فيه بالأركان الستة التي ذكرها.

ثانيا: الإيمان والإسلام مترادفان

والإيمان والإسلام مترادفان عند جمهور أهل العلم؛ لأن كلا منهما اعتقاد ونطق وعمل، فالإسلام هو طاعة جميع الجوارح، المبنية على النطق بالشهادتين مع اعتقاد معناهما كما تقدم، ونفس المعنى ينطبق على الإيمان كما رأينا في تعريفه.

فالإسلام والإيمان يجتمعان في حقيقة واحدة، وهي: **التصديق والخضوع والانقياد:**

فالنطق بالشهادتين مثلا يسمى إيمانا؛ لأنه دليل على التصديق؛ ويسمى إسلاما أيضا؛ لأنه دليل على الخضوع والانقياد.

والصلاة مثلا تسمى إيمانا لأنها مبنية على التصديق وثمرة من ثمراته، وتسمى إسلاما لأنها انقياد وإذعان، وقد جاء التعبير عنها في القرآن بالإيمان، في قوله تعالى: **(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)**[1]. أي صلاتكم.

وقد ورد إطلاق الإيمان على الأعمال الظاهرة، في قوله عليه الصلاة والسلام: **(هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسًا مِنَ الْمَغْنَمِ)**[2].

وبناء على ما تقدم فكل مؤمن مسلم، وكل مسلم مؤمن، ولا يصح الحكم على أحد من المسلمين بأنه غير مؤمن.

وأما قوله تعالى: **(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)**[3].

فقد نزل في أعراب من بني أسد بن خزيمة، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة جذبة، فأعلنوا إسلامهم في

---

1 البقرة 143

2 رواه الشيخان البخاري ومسلم

3 الحجرات 14

الظاهر، ولم يكونوا مؤمنين في السر، وتسببوا في غلاء الأسعار بالمدينة وأفسدوا شوارعها بالعذرات، ثم راحوا يطلبون الصدقة من الرسول عليه الصلاة والسلام، وهم يمنون عليه بإسلامهم فنزلت فيهم الآية.

وفي تفسير القرطبي: **(وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)**. أي قولوا: استسلمنا خوفا من القتل والسبي[1].

ثالثا: الإيمان قول وعمل

الإيمان ليس مجرد تصديق باطني عارٍ عن الأعمال الصالحة، بل هو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح الظاهرة، فمن استكمل ذلك فقد استكمل الإيمان، ومن لم يستكمله لم يستكمل الإيمان.

وليس معنى ذلك أن الإيمان لا يصح أصلا بدون عمل الجوارح، فعمل الجوارح ليس ركنا في الإيمان أو شرطا في صحته، وإنما هو شرطُ كمالٍ، فلا يكمل إلا بالعمل.

---

1 تفسير القرطبي، 16 / 348

قال الله تعالى: (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**)[1].

فالمؤمن المستكمل للإيمان، إنما هو من جمع في نفسه بين الاعتقاد الجازم بالله ورسوله، وبين الأعمال الظاهرة، كالجهاد بالمال والنفس.

وقال صلى الله عليه وسلم: (**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**) [2].

فإماطة الأذى عن الطريق والحياء من الأعمال الظاهرة وهما معدودان من شعب الإيمان أي من فروعه.

وقال صلى الله عليه وسلم: (**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**)[3].

---

1 الحجرات 15

2 رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: شعب الإيمان، رقم: 58 - (35)

3 رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم الحديث:13

رابعا: العصيان لا يخرج العبد عن دائرة الإيمان

فمن ضيع الواجبات أو ارتكب المحرمات، لا يخرج بذلك عن دائرة الإيمان، بل هو مؤمن عاص كتارك الصلاة مثلا؛ لقوله تعالى:(**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**)[1].

فلم ينف عنهم الإيمان رغم اقتتالهم، وهو من كبائر العصيان.

خامسا: الإيمان يزيد وينقص

الصحيح أن إيمان عامة المؤمنين[2] يزيد وينقص، فيزيد بالأعمال الصالحة وينقص بنقصانها، وهو ما دلت عليه النصوص الشرعية؛

كقوله تبارك وتعالى: (**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**)[3].

---

1 الحجرات 9

2 قيدنا زيادة الإيمان ونقصانه بعامة المؤمنين؛ احترازا عن إيمان الأنبياء فإنه يزيد ولا ينقص بلا خلاف، وعن إيمان الملائكة فإنه لا يزيد ولا ينقص.

3 الانفال 2

وقوله تعالى: **(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)**[1].

سادسا: وسائل زيادة الإيمان

من أهم وسائل زيادة الإيمان وتقويته:

1- كثرة التأمل والنظر في الآيات الكونية، فكلما حلق المؤمن بأفكاره في مخلوقات الله قوي يقينه وازداد إيمانه؛ ولأجل ذلك دعانا القرآن إلى التأمل والنظر في المخلوقات السفلية والعلوية؛

فقال تعالى: **(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)**[2].

وقال تعالى: **(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ طَعَامِهِ)**[3].

---

1 الفتح 4

2 عبس 24

3 الذاريات 21

وقال تعالى: **(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)**[1].

2- طلب العلم النافع؛ لقوله تعالى: **(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)**[2].

والسر في ذلك لأنهم يعرفونه حق معرفته، فكلما ازدادت معرفة المؤمن بربه ازداد إيمانه، وكلما ازداد إيمانه قويت خشيه لله تعالى.

3- تلاوة القرآن العظيم المصحوبة بالتأمل والتدبر؛ لقوله تعالى: **(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)**.

4- ذكر الله جل جلاله؛ لقوله تعالى: **(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)**[3].

---

1 آل عمران 191

2 فاطر 28

3 الرعد 28

5- الأعمال الصالحة بصفة عامة، كحضور مجالس العلم وصحبة الأخيار؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً)**[1].

ففيه دليل على زيادة إيمانهم حينما يكونون في حضرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ويقاس عليه حضور مجالس ورثته من العلماء والمشايخ العارفين بالله تعالى.

سابعا: الاستثناء في الإيمان؟

اختلف العلماء في حكم الاستثناء في الإيمان، كأن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله؟ وفي المسألة تفصيل، وهو على النحو الآتي:

1- إن أراد به الشك والتردد فلا يجوز ذلك بإجماع العلماء؛ لأن الإيمان اعتقاد جازم والشك ينافي الجزم.

---

1 رواه مسلم، في كتاب: القرائق، باب: التوبة، رقم: 12 - (2750)

2- وإن أراد به التبرك بذكر اسم الله تعالى جاز إجماعا أيضا.

3- وإن لم يرد شكا ولا تبركا فهذا وقع فيه الخلاف، فمنعه مالك وأبو حنيفة، وأجازه الشافعي وابن حنبل، والله أعلم.

المطلب الثاني: أركان الإيمان

الركن هو ما لا تقوم حقيقة الشيء إلا به، وأركان الإيمان ستة، جمعها الناظم في البيتين المتقدمين:

الإِيمَانُ جَزْمٌ بِالإِلَـهِ وَالْكُتُبْ   والرُّسْلِ وَالأَمْلَاكِ مَعْ بَعْثٍ قَرُبْ

وقَدَرٍ كَــذَا صِــرَاطُ مِيزَانْ   حَــوْضُ النَّبِــيِّ جَـنَّـةٌ وَنِيرَانْ

يعني: أن الإيمان اعتقاد جازم بهذه الأركان الستة، ودليل انحصارها في هذا العدد حديث جبريل وفيه: **(قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)** [1]

---

1 رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بَابُ: معرفة الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ، رقم الحديث: 1

الركن الأول: الإيمان بالله

فيجب الإيمان به جل جلاله إيمانا جازما على النحو المتقدم في ما يجب له من الصفات، وما يستحيل في حقه وما يجوز...

الركن الثاني: الإيمان بالكتب

فيجب الإيمان الجازم بالكتب السماوية، المنزلة من الله تعالى بعض رسله وأنبيائه؛ لقوله تعالى:(**وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ**)[1].

واختُلف في عددها، وأصح الأقوال أنها مائة وأربعة، وقد نظمها بعضهم فقال:

وجملة الكتب التي قد أنزلت   أربعة معْ مائة قد فصلت

فيجب الإيمان بهذه الكتب بصفة مجملة، أما ما فُصِّل فيجب الإيمان به على وجه التفصيل، وهو الكتب الأربعة التي ورد ذكرها في القرآن العظيم، وهي القرآن المنزل على سيدنا محمد، والتوراة المنزلة على سيدنا موسى، والإنجيل المنزل على سيدنا عيسى، والزبور المنزل على سيدنا داود.

---

1 الشورى 15

وجميع الكتب السابقة قد لحقها تحريف وتبديل، فالتوراة المتداولة لدى اليهود، ليست هي التوراة المنزلة على سيدنا موسى عليه السلام، والأناجيل المتعددة المتداولة اليوم لدى النصارى، ليست هي الإنجيل المنزل على سيدنا عيسى عليه السلام، وكذلك صحف إبراهيم وزبور داود عليهما السلام، قد دخلهما تحريف كلي ويكادان أن ينعدما.

ولم يسلم من التحريف إلا القرآن العظيم، الذي تعهد الله بحفظه، فقال تعالى: **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**[1].

فالقرآن العظيم هو الكتاب الإلهي الوحيد الذي تصح نسبته اليوم لله تعالى.

وقد نسخ الله سبحانه وتعالى جميع الكتب السابقة، وجمع ما تفرق فيها من معانٍ في القرآن العظيم؛ قال تعالى: **(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)**[2].

---

1 المائدة 48

2 المائدة 48

الركن الثالث: الإيمان بالرسل

وقدم تقدم بيان ما يجب لهم من الصفات، وما يستحيل في حقهم وما يجوز.

فيجب الإيمان الجازم بهم جميعا؛ لقوله تعالى: **(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)**[1].

وعددهم ثلاثمائة وأربعة عشر رسولا، قال الله تعالى: **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)**[2].

فأما الذين لم يرد ذكرهم في القرآن فيجب الإيمان بهم إجمالا لا تفصيلا، أي لا يُشترط أن يعرف أسماءهم جميعا.

وأما الذين ورد ذكرهم في القرآن فيجب الإيمان بهم تفضيلا، ولو لم يكن حافظا لأسمائهم على ظهر قلب،

بل يكفي لو سئل عن أحدهم لم ينكر نبوته، وعددهم خمسة وعشرون نبيا ورسولا، ذكر الله منهم ثمانية عشر في سورة الأنعام، في قوله تعالى:

---

1 النساء 171

2 غافر 78

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ)[1].

وبقي سبعة وهم : **(إدريس، وهود، وشعيب، وصالح، وذو الكفل، وآدم).**

وقد نظمهم بعض الفضلاء فقال:

فِي تِلْكَ حُجَـتُـنَا مِنْهُـمْ ثَمَانِيَةٌ مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمُو
إِدْرِيسُ هُودٌ شُعَيْبٌ صَالِحٌ وَكَذَا ذُو الْكِفْلِ آدَم بِالْمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا

كما يجب الإيمان الجازم بجميع الأنبياء، وروي في عددهم أنهم: **(مِائَةُ أَلْفٍ وَعِشْرُونَ أَلْفًا)**[2]. وهي رواية ضعيفة؛

---

1 الانعام 86

2 رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب البر والاحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها، رقم : 361

ولذلك فالأولى الإيمان بهم بصفة مجملة، من غير حصرهم في عدد معين، لأننا لو حصرناهم في عدد معين، فإن كانوا أكثر منه فقد أنقصنا منهم، وإن كانوا أقل فقد ادخلنا فيهم من ليس منهم.

كما يجب الإيمان الجازم بأن الله تعالى قد ختم رسله وأنبياءه بسيدنا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، فلا نبي بعده؛ لقوله تعالى: (**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**)[1].

ولم يعد الناس في حاجة إلى رسول بعده صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى أرسله إلى كافة الناس إلى أن تقوم الساعة، وحفظ الكتاب المنزل عليه من أي تحريف أو تبديل، وضمنه من الهدى من يسع الناس جميعا في سائر الأزمان، قال تعالى: (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ**)[2]. وقال تعالى: (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**)[3].

---

1 الاحزاب 40

2 سبأ 28 40

3 الأنبياء 207

كما يجب الإيمان الجازم بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أفضلُ المرسلين، وخيرُ خلق الله أجمعين، قال عليه الصلاة والسلام: **(أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)**[1].

وهو صلى الله عليه وسلم أفضل من العرش والكرسي، ومن جبريل والملائكة أجمعين بإجماع المسلمين.

الركن الرابع: الإيمان بالملائكة

الملائكة والأملاك كما عبر الناظم بمعنى واحد، فكلاهما جمع ملك.

وهم مخلوقات لطيفة نورانية لا يأكلون ولا يشربون، ولا يُوصفون بذكورة ولا أنوثة، بل عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، يسبحون الله ليلا ونهارا لا يفترون ولا يسأمون، وهم معصومون بإجماع العلماء...

---

1 رواه مسلم، في كتاب: الفضائل، باب: تفضيل نبينا صلىالله عليه وسلم على جميع الخلائق، رقم: 3 – (2278)

ويجب الإيمان الجازم بهم؛ لقوله تعالى :(**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**) [1].

فنؤمن بم جميعا بصفة مجملة، وما فُصِّل منهم آمنا به على وجه التفصيل، كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرايئل، وهم رؤساء الملائكة، وكمالكٍ خازن النار، ورضوان خازن الجنة، وكمنكر ونكير المكلفَيْن بسؤال القبر، وكالحفظة المكلفِين بحفظ البشر، وكرقيب وعتيد المكلَّفَيْنِ بكتابة الحسنات والسيئات...

وإيماننا بالملائكة الكرام من شأنه أن يجعلنا في حذر دائم من الوقوع في المحرمات؛ حتى لا يُسجل علينا ذلك. كما يجعلنا في تحفز دائم لفعل الخيرات؛ ليسجلها لنا الملائكة الكرام.

قال الله تعالى: (**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**)[2]. وقال تعالى: (**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**)[3]. وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**إِيَّاكُمْ**

---

1 البقرة 285

2 الانفطار 12

3 ق 18

وَالتَّعَرِّي؛ فَإِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ إلا عِنْدَ الغَائِطِ، وَحِينَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاسْتَحْيُوهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ)[1].

كما أن إيماننا بالملائكة يعرفنا أن العصاة في هذا الكون قليلون جدا، فليس لهم نسبة تذكر إلى جانب الأعداد الهائلة للملائكة، علاوة على بقية المخلوقات الخاضعة لربها، المسبحة بحمده في كل حين.

كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم: **(أَطَّتِ**[2] **السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا مِنْهَا مَوْضِعُ قَدِمٍ إِلَّا وَبِهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ قَائِمٌ)**[3].

---

1 رواه الترمذي في سننه، أباب الأدب، باب: ماجاء في الاستتار عند الجماع، رقم الحديث: 2800

2 رواه الترمذي وابن ماجه والنسائي وأحمد وأبو نعيم في الحلية واللفظ له.

3 **أطت**: أي ثقلت بازدحام الملائكة وامتلأت بأصواتهم، وهو تعبير مجازي مؤذن بكثرة الملائكة، وخضوعهم جمبعا لله جل جلاله.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر

وسُمِّي باليوم الآخر؛ لأنه آخر الأزمنة المحدودة، أو لأنه آخر أيام الدنيا، أو لأنه لا ليل بعده..

والمراد به: من حين البعث والنشور إلى ما لا نهاية، قال الله تعالى: **(ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ)**[1].

فيجب الإيمان الجازم باليوم الآخر؛ فهو أحد الأركان الأساسية للإيمان، الواردة في حديث جبريل المتقدم وفيه: **(قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ .. وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)**.

كما يجب الإيمان الجازم بكل ما يقع فيه من مشاهد وأحوال، والتي ذكر الناظم منها: البعث والصراط، والميزان والحوض، والجنة والنار، فقال رحمه الله:

الإِيمَانُ جَزْمٌ بِالإِلَـهِ وَالْكُتُبْ والرُّسْلِ وَالأَمْلَاكِ مَعْ بَعْثٍ قَرُبْ

وقَدَرٍ كَـذَا صِـرَاطُ مِيزَانْ حَـوْضُ النَّبـيِّ جَنَّـةٌ وَنِيرَانْ

---

1 هود 103

أولا: البعث:

فيجب الإيمان الجازم بالبعث، وهو إخراج الموتى من القبور للحشر، بعد إحيائهم ورد أرواحهم إليهم، وذلك بأن يجمع الله أجزاءهم الأصلية بعد تفرقها، أو بعد عدمها بالكلية، ثم ينزل الله عليها من السماء ماء، فتنبت أجسادهم كما تنبت البذور.

قال الله تعالى: **(قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)**[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ)**[2].

وعجب الذنب هو عظم مستدير في أسفل العمود الفقري، بحجم حبة العدس تقريبا، ويُسمى بالعُصْعُصِ، فهذا الجزء من الآدمي لا تأكله الأرض ولا يلحقه فناء أبدا، شأنه كشأن سائر البذور التي أودع الله فيها خاصية مقاومة عوامل الفناء،

---

1 التغابن 7

2 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: يوم ينفخ في الصور فتاتون أفواجا، رقم: 4935

فتظل كامنة تحت الأرض في الجبال وغيرها، ثم إذا ما نزل عليها المطر نبتت، وأصبحت الأرض مخضرة مهما طال عليها أمد الجفاف، وكذلك تتم عملية البعث والنشور، كما قال الله تبارك تعالى:

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ)[1].

أما باقي أجزاء الجسد فكلها تفنى، باستثناء الأنبياء عليهم السلام ومن يُلحق بهم، فقد أجمع العلماء على أن أجسامهم الطاهرة لا تتغير، بل تبقى على حالها، وما بعثها إلا إرسال الروح فيها. قال صلى الله عليه وسلم: **(نَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ)**[2].

ويُلحق بهم الشهداء والعلماء وحملة القرآن والمؤذن الذي يحتسب أذانه لله وحده، وقد نظمهم الشيخ التتائي فقال:

لا تأكلُ الأرضُ جِسْماً للنَّبِي ولا لعالِمٍ وشهيدِ قتلِ مُعْتَرَكِ

ولا لقــارِئِ قـــرآنٍ ومُحْتَسِــبٍ أذانَهُ لِلإلهِ مُجْرِى الفَلَكِ

---

1 فاطر 9

2 رواه ابن ماجه في سنه، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في ذكر وفاته صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث: 1636

وقول الناظم: **(بعث قرب)** أي دنا وحضر وقته؛ كما قال تعالى: **(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)** [1].

وقال تعالى: **(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ)**[2].

وبعد البعث يحشر ربنا جلت قدرته جميع الخلائق، حفاة عراة مجرّدين من كل قوة، ويجمعهم جميعا بأرض المحشر، وهي أرض بيضاء مستوية، لاجبال فيها ولا أشجار ولا بحار، ولا معلم فيها لأحد... ويطول بهم الموقف في أرض المحشر، حتى قيل: أنهم يقفون مقدار 300 سنة من سنين الدنيا...

وهنالك يحاسبهم الله جميعا على ما جل ودقَّ من أعمالهم.

قال تعالى: **(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)**[3].

---

1 النحل 1

2 النحل 77

3 الكهف 49

ولا جرم أن الذي يرزق خلائقه جمعاء في آن واحد، ويمدهم بأسباب الحياة في آن واحد.. لا يعجزه أن يحسابهم جميعا في آن واحد، قال تعالى: **(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)**[1]. وقال تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)**[2].

ثانيا: الصراط:

ويجب الإيمان الجازم بالصراط، وهو جسر يُنصب على ظهر جهنم، فيمر عليه الناس أجمعون، فينتهي أهل الجنة إلى الجنة، ويسقط منه أهل النار في النار؛ قال الله تعالى: **(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)**[3].

وجاء في وصف الصراط، أنه أسود مظلم من شدة سواد جهنم، فلا يعبره يومئذ إلا من كان له نور،

---

1 لقمان 28

2 لقمان 28

3 مريم 71

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ). وأنه أرق من الشعر، وأحدُّ من السيف، وأحر من الجمر، وطوله خمسمائة عام، وعليه كلاليب معلقة، تتخطَّف من أُمِرت بخطفه ورميه في الهاوية... نسأل الله السلامة.

ويمر عليه جميع الناس حسب أعمالهم، فمن اعتاد السير على صراط الإسلام في الدنيا، هان عليه المرور على الصراط يوم القيامة، فسرعة مرور الناس على الصراط وبطؤهم، تكون حسب مسارعتهم لمرضات الله في دار الدنيا وبطؤهم عنها.

قال صلى الله عليه وسلم: **(فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ ... ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ..)**[1].

ويكون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أَوَّلَ من يعبر الصراط بأمته، قال عليه الصلاة والسلام:

(فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ)[1].

---

1 جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه رقم: 329 – (195)

فنسأل الله تعالى أن يطلف بنا، وأن يشفع فينا نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام.

رَبَّاهُ جِئْتُكَ مَفْجُــوعًا بمأْثَمَتِي   وأنْت تعلم ما في القلْبِ منْ أملِ

وأنت خيرُ رحيمٍ يا رحيمُ وَمَنْ   سِـواك يَدْفعُ عَنِّي روعة الوَهَلِ

وَإِنَّنِي بِرَسُـــولِ اللَّهِ مُحْتَمِيٌ   وُمُسْتَجِيـرٌ به عَسَاهُ يَــشْفَعُ لِي

ثالثا: الميزان:

ويجب الإيمان الجازم بالميزان، وهو آلة على صورة ميزان الدنيا، خلقه الله تعالى لتقدير أعمال العباد؛ من أجل إقامة الحجة عليهم، فتوزن فيه جميع أعمالهم، من أقوال وأفعال وأخلاق واعتقادات ونيات...

قال الله تعالى: **(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)**[2].

---

1 رواه البخاري في كتاب: الأذان، باب: فضل لسجو، رقم الحديث:806

2 الأنبياء 47

وقال تعالى: **(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ)**[1].

وأجمع العلماء على أن وزن الأعمال يكون أثناء الحساب بأرض المحشر، وقبل المرور على الصراط، والمشهور عند العلماء أن الصحف المدَوَّنةُ فيها أعمالُ العبادِ هي التي توزن؛ بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: **(إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلاَئِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ**

---

1 الأعراف 9

السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ)[1].

ومحل الشاهد: هو أن السجلات التي دُوِّنتْ فيها أعمال العباد هي التي توزن.

رابعا: الحوض:

وهو نهر أعطاه الله لحبيبه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم، ليشرب منه هو وأمته يوم القيامة.

قال الله تعالى: **(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)**[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: **(أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ, وَهُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**[1].

---

1 رواه الترمذي في سننه، أبواب: الإيمان، باب: ما جاء فمن يموت وهو يشهد أن لاإله إلا الله، رقم الحديث: 2639

2 الكوثر 1

والمختار أن وروده يكون قبل الوزن والحساب والصراط، وقال بعض علمائنا: أن جهل التقدم والتأخر في الحوض والميزان والصراط لا يقدح في العقيدة.

وجاء في وصفه: أن ماءه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأن ريحه أطيب من المسك، وأن من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا، نسأل الله أن لا يحرمنا من من وُروده بسوء فعالنا، وأن طوله كما بين مكة المكرمة والأقصى الشريف عجل الله بخلاصه من أيدي البغاة الآثمين.

خامسا: الجنة:

فيجب الإيمان بالجنة، وهي بلاد الأفراح والنعيم المقيم، وهي دار الخلد والثواب العظيم، الذي أعده الله لعباده المتقين.

---

1 رواه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: من قال البسملة آية من أول كل سورة.. رقم الحديث: 53 – (400)

قال الله تعالى: **(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا)**[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: **(قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)**[2].

وهي مخلوقة الآن؛ لقوله تعالى: **(أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)**[3].

أي هُيئت لهم، وهو ما عليه عامة العلماء خلافا للمعتزلة.

ومحلُّها فوق السماوات السبع؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: **(فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ)**[1].

---

1 مريم 63

2 رواه الخاري في صحيحه، في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها خلوقة، رقم الحديث: 3244

3 آل عمران 133

وتربتُها: المسك والزعفران.

وحصباؤُها: اللؤلؤ والمرجان.

وبناؤُها: لَبِنَةٌ من فضة ولَبِنَةٌ من ذهب.

وأشجارُها : ما فيها من شجرة إلا وساقها من فضة وذهب، لا من حطب وخشب.

وثِمارُها : كأمثال القِلال، ألين من الزَّبَد، وألذُّ من العسل.

وأنهارُها: من لبن لم يتغيّر طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، ومن عسل مُصفًّى، ومن ماء غير آسِن.

وطعامُ أهلها: فاكهة مما يتخيّرون، ولحم طير مما يشتهون.

وشرابُها: من تسنيم وزنجبيل وكافور.

وآنيتُها: من ذهب وفضة في صفاء القوارير.

---

1 رواه الخاري في صحيحه، في كتاب: التوحيد، باب: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، رقم الحديث: 7423

وسعتُها: أدنى أهلها منزلةً يسير في ملكه وقصوره وبساتينه مسيرةَ أَلْفَيْ عام.

وسعةُ أبوابها: مسيرة أربعين من الأعوام.

وظِلُّها: يسير الراكب المُجِدُّ السريع في ظل شجرة من أشجارها مائة عام فما يقطعها.

وخيامُها وقِبابُها: من دررٍ مجوَّفة، طول الواحدة منها ستون ميلا.

وارتفاعُها: كالكوكب الدري الطالع في الأفق، الذي لا تكاد تناله الأبصار..

وزوجاتُها: حور مقصورات في الخيام، خَيِّراتٌ حِسَان، لم يطمثهن من قبلُ إنس ولا جان.

وسكانُها: عباد منعَّمون، وإخوان متحابون، على الأرائك متكئون، يفرحون ولا يحزنون، يضحكون ولا يبكون, يقيمون ولا يرحلون, يحيون ولا يموتون, يجامعون ولا يتناسلون، يأكلون ويشربون، ولا يبولون ولا يتغوطون، عَرَقُهم مسك طيِّب

الأرايج، وأمشاطهم من ذهب إبريز، ولباسهم من سندس وحرير.. **وفيها** الحور العين كأمثال اللؤلؤ المكنون، وفيها الوِلْدُان المُخلَّدون، وفيها الوجوه الحِسان، وفيها ما لم يخطرْ على بال إنسان... **وفوق كل ذلك فيها المزيد، حيث يكشف مولانا عن وجهه الكريم؛ لينظر إليه ساكنوها بعين اليقين؛ فما أُعْطُوا نعيما أحب إليهم من النظر إلى البر الرحيم.**

قال جلَّ ثناؤه: **(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)**[1].

وقال تقدست أسماؤه: **(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)**[2].

هذه خلاصة ما جاء في وصفها، لا حرمنا الله وإياكم منها.

---

1 يونس 26

2 ق 35

سادسا: النار:

فيجب الإيمان الجازم بوجودها، وأنها مخلوقة الآن مهيّأة للكافرين والمجرمين، واختُلف في تعيين محلها اختلافا كثيرا، والأولى التوقف؛ لعدم ورود نص يُعوّل عليه في تعيين محلها، ولا يقدح التوقف في الإيمان.

وعبر الناظم عنها بصيغة الجمع، فقال: **(ونيران)** ؛ إشارة إلى طبقاتها السبع، التي ورد ذكرها في قوله تعالى: **(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ)**[1].

فأعلاها **جهنم**: وهي لعصاة المؤمنين، ثم **لظى**: وهي للهيود، ثم **الحطمة**: وهي للنصارى، ثم **السعير**: وهي للصابئين وهم فرقة من اليهود، ثم **سقر**: وهي للمجوس وعبدة النار، ثم **الجحيم**: وهي لعبدة الأصنام، ثم **الهاوية**: وهي للمنافقين وكلَّ من اشتدَّ كفرُه، كفرعون وهامان وقارون وأمية بن خلف.

---

1 الحجر 44

وقد نظم هذه الطبقات أحد الفضلاء فقال:

جَهَنَّمُ لِلْعَاصِي ، لَظَى لِيِهُودِهَا   وَحُطَمَةٌ دَارٌ لِلنَّصَـارَى أُولِي الصَمَمْ

سَعِيرٌ عَذَابُ الصَّابِئِينَ وَدَارُهُمْ   مَجُوسٌ لَهَا سَقَرٌ، جَحِيمٌ لِذِي صَنَمْ

وَالْهَاوِيَــةُ دَارُ النِّـفَاقِ وُقِيتَهَا   وَأَسْـأَلُ رَبَّ الْعَرْشِ أَمْناً مِـنَ النِّقَمْ

فأما الكفار فهم مخلّدون في النار إجماعا؛ لقوله تعالى: **(وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)**[1].

وأما عصاة المؤمنين، فمن ارتكب منهم كبيرة غيرَ مكفرة من غير استحلال لها، ولم يتب منها إلى الله تعالى، فأمره مفوض وموكول إلى مشيئة الله تعالى، فلا نقطع بالعفو عنه؛ لئلا تكون المعاصي في حكم المباحة، ولا نقطع له بالعقوبة أيضا؛ لأن الله يغفر الذنوب جميعا.

وعلى تقدير دخوله إلى النار فإنه لا يخلد فيها إجماعا، بل يعذب مدة معينة على قدر ذنوبه، ثم يخرج منها بعفو الله ورحمته وبشفاعة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم؛

1 البقرة 167

قال عليه الصلاة والسلام: **(يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ)**[1].

وقد جاء وصف النار في العديد من النصوص الشرعية، وصفا تقشعر له الأبدان، وتذوب لهوله حبات القلوب، من ذلك:

* وقال تعالى: **(إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)**[2].

أي مغلقة عليهم من كل الجهات؛ ليرجع إليها دخانها ولهيبها ويُضاعف حرُّها.

* قال الله تعالى: **(فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ)**[3]

وقال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)**[4].

---

1 رواه الترمذي في سننه ، باب: ما جاء في الكبر، 1999

2 الهمزة 9

3 الحج 19

4 الهمزة 9

فلا وقود لها إلا الآدميون والحجارة التي اتخذها الناس آلهة يعبدونها من دون الله.

* وقال صلى الله عليه وسلم: **(نَارُ بَنِي آدَمَ، الَّتِي يُوقِدُونَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْأً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ)**[1].

فإذا كنت نار الدنيا تصلى إلى 1000 درجة مئوية مثلا؛ فإن نار جهنم تكون 70000 درجة كحد أدنى أعاذنا الله منها.

* وقال صلى الله عليه وسلم: **(إِنَّ الصَّخْرَةَ العَظِيمَةَ لَتُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَتَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا وَمَا تُفْضِي إِلَى قَرَارِهَا)** [2].

* وقال صلى الله عليه وسلم: **(إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ)**[3].

---

1 رواه مالك في موطئه، باب: ما جاء في وصف جهنم، رقم الحديث:3047 / 830

2 رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في صفة قعر جهنم، رقم الحديث:2575

3 رواه مسلم، في كتاب الإيمان، اب: أهن أهل عذابا، رقم الحديث: 361 – (211)

الركن السادس: الإيمان بالقدر

1- مفهوم القدر: القدر هو جريان جميع الأمور في هذا الكون وفق ما قضى الله به في الأزل.

أي أن جميع ما يجري في هذ الكون، من إيجاد أو إعدام، ومن خير أو شر... قد علمه الله سحانه في سابق علمه الأزلي، واتجهت إليه إرادته، وتعلقت به قدرته، فلا يوجد منه شيء إلا بعلم الله وإرادته وإذنه، كما قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)[1].

وقال تعالى: **(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)**[2].

---

1 الحديد 22

2 فاطر 11

2- الفرق بين القضاء والقدر: القضاء والقدر إذا اجتمعا ترادفا، أي كانا بمعنى واحد، وإذا تفرقا تباينا، فيكون لكل منهما معنى: والفرق بينهما في حال تفرقهما هو:

أن القضاء: ما علمه الله وأراده وحكم به في الأزل. **والقدر:** وجود المخلوقات مطابقة لعلم الله وإرادته وحكمه.

وبتعبير آخر:

أن القضاء: هو وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة. **والقدر:** هو وجودها متفرقة، في أوقاتها وأماكنها وعلى هيئاتها وصفاتها المخصصة لها في الأزل.

3- وجوب الإيمان بالقدر:

يجب الإيمان الجازم بالقدر، خيره وشره من الله تعالى؛

لقوله جل جلاله: **(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)**[1].

وقوله تعالى: **(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)**[2].

وقوله تعالى: **(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)**[1].

---

1 القمر 24

2 الفرقان 2

وقوله صلى الله عليه وسلم: **(لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَحَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ)**[2]

4- الخلاصة:

* يجب على المؤمن أن يؤمن بأن كل شيء في الوجود إنما يسير وفق علم الله وإرادته وقدرته، وأن من الأقدار ما هو نافع ومنها ما هو ضار، وأن كل ذلك يجري وفق حكمة أرادها الله، فإن أصابه قدر نافع حمد ربه ولم يبطر، وإن أصابه قدر ضار صبر ولم يجزع ؛ فالإيمان بالقدر يصنع الإنسان السوي المتزن، الذي لا يجزع عند المصيبة، ولا يبطر عند النعمة.

* وعلى المؤمن أن يعلم أن القدر لا يعني جبر العباد على أفعالهم وإلغاء إرادتهم، فلا يجوز لأحد أن يحتج به، لأن الله تعالى خلق الخير والشر، وخلق أفعال عباده، وخلق فيهم

---

1 التوبة 51

2 رواه الترمذي في أبوب: الولاء والهبة، باب: ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، رقم الحديث: 2144

القدرة على اكتسابها، ومنحهم هدىً وعقلا وسمعا وبصرا؛ يميزون به بين الأقدار الضارة فيجتنبوها، وبين الأقدار النافعة فينتفعوا بها، كما قال سيدنا عمر: **(نَفِرُّ من قَدَر الله إلى قَدَر اللهِ)**[1]

قال ربنا جل جلاله: **(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)**[2]

وقال جل ثناؤه: **(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)**[3].

---

1 رواه الترمذي في أبواب: الولاء والهبة، باب: ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، رقم الحديث: 2144

2 الأعلى 3

3 طه 50

* وعلى المؤمن أن يعلم أن الله قد علم في سابق علمه كل ما سيفعله عباده من خير أو شر، وما سيختارونه لأنفسهم من أقدار، فأراد ذلك جل جلاله وكتبه عنده وأحصاه في كتاب مبين.

قال مولانا تبارك وتعالى: **(وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)**[1].

وقال تقدست أسماؤه: **(وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا)**[2]

---

1 يس 12

2 النبأ 29

المبحث الثالث عشر: حقيقة الإحسان

قال الناظم:

وَأَمَّا الإِحْسَانُ فَقَالَ مَنْ دَرَاهْ　　أَنْ تَعْبُـــــدَ اللهَ كَـأَنَّــكَ تَـــرَاهْ

إِنْ لَمْ تَكُــنْ تَـرَاهُ إِنَّهُ يَرَاكْ　　والدِّينُ ذِي الثَّلَاثُ خُذْ أَقْوَى عُرَاكْ

بعد أن فرغ الناظم من بيان المقام الأول والثاني للدين الإسلامي، وهما الإسلام والإيمان، شرع الآن في بيان ثالث مقامات الدين، وهو مقام الإحسان.

المطلب الأول: تعريف الاحسان:

أولا: الإحسان لغة: مصدر أحسن يحسن إحسانا، ويُجمع على إحسانات، وهو كلُّ مُبْهِجٍ مرغوبٍ فيه، ويأتي على عدة أوجه، منها:

1- الإحسان إلى الغير، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: **(مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ)**[1]

---

1 رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار والضيف.. رقم الحديث: 77 - (48)

2- إجادة الصنع وإتقانه، ومنه قوله تعالى: **(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)**[1]

3- إحسانُ الأفعال: ومنه قول سيدنا على كرم الله وجهه: **(وَاعْلَمُوا أَنَّ النَّاسَ أَبْنَاءُ مَا يُحْسِنُونَ، وَقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ, فَتَكَلَّمُوا فِي الْعِلْمِ تَتَبَيَّنُ أَقْدَارُكُمْ)**[2]

أي أن الناس منسوبون إلى ما يحسنونه من الأفعال الحسنة.

ثانيا: الإحسان شرعا:

هو إحسان العبادة والخشوع فيها، وإخلاصها لله وحده، وفراغ البال حال التلبس بها، من كل شاغل عن مراقبة المعبود جل جلاله.

وهذا التعريف الشرعي هو الذي عناه الناظم بقوله:

وَأَمَّا الإِحْسَانُ فَقَالَ مَنْ دَرَاهْ   أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهْ

إنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ إنَّهُ يَرَاكْ   ....

---

1 السجدة 7

2 جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، 416/1

وقوله: **(مَنْ دَرَاهْ)** أي من عَرَفَهُ حق معرفته، وهو الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، إشارة إلى ما جاء في حديث جبريل عليه السلام:

(قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))[1]

المطلب الثاني: مراتب مقام الإحسان:

للإحسان مَرْتَبَتَانِ تضمنهما الحديث المتقدم:

المرتبة الأولى: المشاهدة:

وهي المشار إليها في قوله صلى الله عليه وسلم: **(أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ)** أي كأنك تشاهده وتراه ببصرك، وإذا عبدتَّه كذلك فمحال أن تراه وترى معه غيرَه؛ ولذلك سُمَّيت هذه المرتبة بمرتبة الفَناء في التوحيد؛ لأن من رأى بعين قلبه الحقَّ جل جلاله، غاب عنه كل شيء، وإذا غاب عنه كل شيء فقد فني عنه.

---

1 رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بَابُ: معرفة الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ، رقم الحديث: 1

ففي مرتبة المشاهدة أو الفناء يشتغل القلب بمشاهدة الحق جل جلاله ويفنى عن كل ما سواه، كما يفنى المْيت عن الحياة الدنيا أي يغيب عنها بالكلية.

وبقريب من هذا فُسِّر الاستهتار في قوله صلى الله عليه وسلم: **(سَبَقَ الْمُفْرِدُونَ، قَالُوا: وَمَا الْمُفْرِدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْمُسْتَهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ، يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ فَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِفَافًا)**[1].

فقد فُسِّر الاستهتار بأنه الشغف بالشيء والولوع به والاشتغال به إلى درجة الفناء عما سواه؛ **وسُمُّوا بالمُفْرِدِينَ**: من الإفراد: لأنهم أفردوا أنفسهم وميّزوها عن غيرهم بالاستغراق في ذكر الله، أو لأنهم أفردوا الله بالذكر وتركوا ما سواه.

وكل محاولة لإخراج الفناء عن هذا المفهوم، بجعله مرتبة أعلى من مقام الإحسان، أو جعله ذريعة إلى التفلت من التكاليف الشرعية، فهي مغالطة وزندقة..

---

1 أخرجه الترمذي في سننه، باب: العفو والعافية، رقم الحديث:3596

كما قال العارف بالله إبراهيم بن شيبان قدس الله سره[1]: **(عِلْمُ الفَنَاءِ والبَقَاءِ يَدُورُ عَلَى إخلاَصِ الوَحْدَانِيَةِ وصِحَّةِ العُبُودِيةِ، وَمَا كَانَ غَيْرَ هَذَا فَهُوَ مِنَ المَغَالِيطِ والزَنَّدَقَةِ)**[2]

والمرتبة الثانية: المراقبة:

وهي المشار إليها في قوله صلى الله عليه وسلم: **(فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكْ)**. وهي أدنى رتبة من المرتبة المتقدمة.

ومعناها: إن لم تشاهد الحق جل جلاله لقصورك عن الرؤية، فراقبْه باستحضار إطلاعه عليك، وإحاطة علمه بجميع أحوالك الظاهرة والباطنة؛ كما قال سبحانه وتعالى: **(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)**[3].

وقال جل ثناؤه: **(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ)**[4].

---

1 هو: أَبُو إِسْحَاق إِبْرَاهِيم بن شَيبَان القِرميسيني، نسبة إلى (قَرمِيسين) بلدة بجبال العراق، وهو ومن أبرز أعلام التصوف في القرن الرابع الهجري رحمه الله .

2 الرسالة للقشيري 130/1

3 الأحزاب 25

4 البقرة 235

وذكر القشيري قدس الله سره قصة تقرب معنى المراقبة جاء فيها:

(أن أحد المشايخ كان له تلامذة، فكان يخصُّ أحدهم بإقباله عَلَيْهِ، أَكْثَرَ مِمَّا يُقبِل عَلَى غيره، فسألوه عن سبب ذلك؟

فقال: سأبيّن لكم ذلك؛

فدفع إِلَى كُل واحد منهم بطائر، ودفع إِلَى تلميذه المفضَّل بطائر هو الاخر، وقَالَ لَهُم جميعا: فليذبحْ كلُّ واحدٍ منكم طائره حيث لا يراه أحد.

فمضوا ثم رجعوا وقد ذبح كل واحد منهم طائرَه، ثم جاء ذلك التلميذ المفضَّلُ بطائره حيًّا.

فَقَالَ له الشيخ: هلاَّ ذبحته كما أمرتك؟

فَقَالَ التلميذ: أمرتني أَن أذبحه حيث لا يراني أحد، وَلَمْ أجد موضعا لا يراني فيه الله جل جلاله.

فقال الشيخ لتلامذته: لِهَذَا كنت أخصُّه بإقبالي عَلَيْهِ)[1]

---

1 الرسالة للقشيري 329/1

واعلم بأنه لا يبلغ أحد مرتبة المشاهدة، إلا بعد مروره بمرتبة المراقبة، كما لا يبلغ أحد مرتبة المراقبة، إلا بعد مروره بمرتبة المحاسبة، فالمراتب الثلاث متدرّجة، أدناها طريق ووسيلة إلى أعلاها. قال أبو محمد الْجُرَيْرِيُّ رضي الله عنه[1]:

(مَنْ لَمْ يُحْكِمْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ الْمُرَاقَبَةَ وَالتَّقْوَى لَا يَصِلُ إِلَى الْكَشْفِ وَالْمُشَاهَدَةِ)[2]

المطلب الثالث:

معنى قوله: (والدِّينُ ذِي الثّلَاَثُ خُذْ أَقْوَى عُرَاكْ)

يعني أن الدين الذي شرعه الله لعباده، من أصول وفروع، مألّفٌ من هذه المقامات الثلاثة، الإيمان والإسلام والإحسان.

فـ(**الدِّينُ**) مبتدأ، و(**ذِي**) اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع خبر للمبتدأ، و(**الثّلَاَثُ**) نعت لاسم الإشارة أو بدل منه.

---

1 هو : أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري، أحد علماء أهل السنة والجماعة، وأبرز أعلام التصوف في القرن الرابع الهجري، وكان من كبار أصحاب الجنيد، فلما توفي الجنيد أجلسوه مكانه، توفي ببغداد سنة 311هـ

2 رواه البيهقي في الزهد الكبير، فَصْلٌ آخَرُ فِي قِصَرِ الْأَمَلِ وَالْمُبَادَرَةِ بِالْعَمَلِ قَبْلَ بُلُوغِ الْأَجَلِ، رقم 906، ص630

وقوله: (**خُذْ أَقْوَى عُرَاكْ**) أي خذْ أوثقَ وأشدَّ عراك، جمع عروة، وهي ما يُتمسّك به كالحبل، والمراد: عليك بالتمسك والاعتصام بهذا الدين، فإنه أقوى وأشد عروة يُتمسّك بها؛ لقوله تعالى: (**وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**)[1]. وقوله تعالى: (**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا**)[2].

ويستفاد من هاتين الآيتين أن العروة الوثقى هي الإيمان والإسلام والإحسان، وهذه الثلاثة هي الدين الكامل الذي ارتضاه الله لعباده، فقال جل جلاله:

(**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**)[3]. وقال تعالى:(**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**)[4].

---

1 لقمان 22

2 البقرة 256

3 المائدة 3

4 البقرة 256

وفي الختام: ما كان في هذا الشرح البسيط من صواب فهو من الله وحده، وما كان فيه من خلل فهو مني وأنا أهله، وأسأل الله أن يتجاوز عن هفواتي، وأن يغفر لي ولوالدي، ولمن سعى في نشر كتابي هذا، ولمن رأى فيه غير الصواب فأصلحه، ولجميع المؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحبه الميامين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المنكسرُ فؤادُه من فُرْط الجناية وقلة العمل والتقوى:

العيد بن توهامي بن زطة الجزائري

الخميس 2 محرم 1445هـ/20 جويلية 2023

الفهرس